مجلّــة الواحــات للبحــوث والدراســات
ردمـــد 7163- 1112
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الحسـن بــن الطيب بوعشرين تطريب الأسماع بأخبار الجزائر وما يقربها من الأصقاع

عيسى بن الذيب
جامعة الجزائر 2
البريد الالكتروني : bendibaissa@yahoo.fr

الملخــص-

تقع الرحلة الموسومة ب " تطريب الأسماع بأخبار الجزائر وما يقربها من الأصقاع " لمؤلفها الحسن بن الطيب بوعشرين ضمن السفر الأول من "**كتاب التنبيه المعرب عما عليه الان حال المغرب** " وتحديدا في الباب الرابع المعنون ب " **أخبار الجزائر والسبب في وصولنا إليها ، وما فيها من البهجة والرونق وكل ما يُشتهى** " التي يرجع السبق في نشرها للمؤرخ المغربي محمد المنوني لكن دون دراسة ولا تحقيق وعليه ارتأيت دراستها وتحقيقها لأهميتها بالنسبة لتاريخ الجزائر المعاصر لكونها تحوي معلومات قيّمة عن مدينة الجزائر قلّما نجدها في مصادر أخرى .

وبالرغم من أن الزيارة التي قام بها صاحب الرحلة إلى الجزائر كان هدفها محددا سلفاً يكمن في مُشاركة الحسن بن الطيب بوعشرين والوفد المرافق له ضمن الوفود المستقبلة للرئيس الفرنسي إيميل لوبي الذي زار الجزائر في الفترة ما بين 15 . 24 افريل 1903 م

وبالرغم من محدودية أيام الرحلة التي لم تتجاوز أحد عشر يوما في حالة عدم احتساب الأيام التي قضاها صاحب الرحلة في المغرب والبحر واقتصر

حسابنا على الأيام التي قضاها في الجزائر فحسب إلا أنه استغل تواجده بها وقام بتسجيل مشاهداته عن مدينة الجزائر وضواحيها وهنا تكمن أهمية الرحلة .

ولإخراج الرحلة في قالب اكاديمي ارتأيت التعريف بصاحب الرحلة المُراد دراستها ومدى أهميّتها فعرفت مُسْبقًا بأسرته وبصاحب الرحلة بدء بتعليمه وترحاله وجوانب من حياته مع ذكر لبعض مؤلفاته وسبب تأليفه للرحلة ، ثم ركزت على مضمون الرحلة وعملت على الفصل بين ما جاء فيها بعناوين هي من إنشائي لكون المؤلف قد أغفل ذلك .

ولتوضيح الرحلة أكثر تتبّعت مسار الرحلة انطلاقا من خروج صاحب الرحلة من مدينة فاس رُفقة الوفد المرافق له ووصوله لمدينة الجزائر بغرض المشاركة ضمن الوفود المستقبلة للرئيس الفرنسي واستقبال هذا الأخير للوفد المغربي وحضور صاحب الرحلة للاحتفالات والاستعراض العسكري الذي أُقيم على شرف الرئيس .

وبعد انقضاء مُهمّته السفارية التي كُلّف بها الحسن بن الطيب بوعشرين بدا المؤلف كشخص عاد أخذ يتجول بمدينة الجزائر ويصف المحال والأماكن التي قام بزيارتها بدء بأدائه لصلاة الجمعة بالجامع الكبير وزيارته لضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي والجامع الجديد ، ثم شرع في وصف عمارة الجزائر ذات الأبنية الراقية وشوارعها المفروشة بالحجر المنحوت .

وشملت رحلته وصفه لمحل رصد الزلازل والمحجر الصحي المقام خصيصا لذوي الأمراض المعْدية كما تناولت الرحلة القوانين التي سنّتها السلطات الاستعمارية لتمليك الأراضي ، ولم تستثن الرحلة الإشارة إلى جوانب أخرى هامة ذات علاقة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الجزائري في تلك الفترة مثل وسائل النقل الفردية والجماعية المستخدمة من طرف أهالي مدينة الجزائر مع الإشارة إلى أسواقها ووفرة سلعها واستقرار الأسعار بها ، كما لمّح صاحب الرحلة إلى التدريبات العسكرية التي يقوم بها الجند

الفرنسيين ببعض ساحات المدينة وختم رحلته بزيارة حديقة الحامة ووصفه لها مع وصفه العام لحال أسواق مدينة الجزائر ومرساها لينهي كتابة رحلته بمدينة الجزائر في السادس والعشرين من شهر محرم سنة الف وثلاثمائة وواحد وعشرين .

Abstract-

The voyage entitled "Enchantment of hearing by the news of Algeria and what brings it closer to the distant provinces (Tatrib el-esmaa bi akhbar El-djazair wa ma youkaribouha min el-askaa)", of its author AL HASSAN IBN TAYEB BOUACHRIN, is part of the book "Before guard on the actual position of the Maghreb (Ettenbih el-moarab ama alayh hal el-maghrib elyoum)", and more precisely in the fourth chapter: "The news of Algeria and the circumstances that led us to reach them. It contains happiness, splendor and gaiety." (Akhba Eldjair wa essabab fi wossolina ilyha, wa ma fiha min elbahdja, rawnaq wa kolou ma youchtaha)". The first publication in this sense is the work of the Moroccan historian Mohammed El Mannoni, however without study or authentication. For this very reason, I have found it useful to study and authenticate this work given its importance for the contemporary history of Algeria, because the book contains valuable information about the city of Algiers that is rarely found in other sources.

The objective of the visit paid to Algiers has already planned by the author that manifested in the participation of AL HASSAN IBN TAYEB BOUACHRIN with his delegation in the reception of French president “Emile Loubet” who visited Algeria between 15 and 24 April 1903, this period concerns the French president visit to Algeria. However, the duration of the author's voyage to Algeria lasted no more than eleven days without considering the time that the delegation stayed at Morocco, the author seized the occasion to visit the town of Algiers and to note his observations concerning this city and its peripheries and this is the importance of this voyage.

To give an academic dimension to this voyage and considering its importance, I proceeded by presenting the biography of the “voyage”, author beginning with his family, then his education and

travels and some facets, without omitting to mention some of his works and the reasons led him to write this voyage. Then I focused my study on the content voyage that I have structured a personal way as several titles for points that the author of "voyage" has not mentioned.

To clarify this “voyage”, I followed the traverse of the “voyage” starting with the departure of the delegation from Fès until the arrival to Algiers to participate like other delegations, to receive French President. This latter received the Moroccan delegation in the presence of the author of the “voyage”, who attended the various ceremonies and the military parade in the honor of the president.

At the end of his official visit as an ambassador, the author Al HASSAN IBN TAYEB BOUACHRINE spent his time visiting Algiers as an ordinary tourist, while describing the premises and visited places. He started with "ALJOMOAÄ" Prayer at "ALKABIR" Mosque. Then he went to the mausoleum of "Sidi Abderrahmane Ethaâlibi “and the new mosque. Later he described the Algiers architecture, buildings, and cobbled carved stone.

In “his voyage”, the author described the center of seismology and the hospital specialized in infectious illnesses. He also referred to the various laws enacted by the colonial authorities as for the expropriation of the grounds. The author did not omit to refer to other aspects relating to the social and economic life of the Algerian society of that time, such as the individual and collective means of transport used by the inhabitants of Algiers town, as well as the markets and the abundance of their goods and the price stability.

The historian has also highlighted the military exercises of French soldiers executed in some public places of the city. He finally ended his trip with a visit to "test garden" of Elhama ", which he described, as well as markets of Algiers and its port.

He finalized writing his voyage at Algiers city on 26th Muharram of the year 1321.

تمهيـد-

ـ إنّ الحديث عن الرّحلة بمفهومها العام يجرّنا للعودة إلى عهود قديمة وتحديداً إلى فترة ما قبل الإسلام التي عرف خلالها العالم ثلاثة أنواع من الرحلات هي :ـ

الرحلات الحربية والرحلات التجارية والرحلات السَّفارية ، فالأولى تهدف إلى التّوسع على حساب الأمم الضعيفة بغرض استغلال مواردها وفرض سيادتها والسيطرة عليها ، وعليه فإنّ تلك الرّحلات افتقدت للبُعد الجغرافي ولم يعد لها بُعد معرفي .

أما الثانية : فهدفها لا يخرج عن نطاق اكتشاف أسواق جديدة واكتساب قدر مُمْكن من الأموال ، فطبعت بالطابع المادي البحت ، في حين كانت الأخيرة عبارة عن رحلة تكليفية تصدر بأمر من السلطة الحاكمة لمن يُمثّلها هدفها محددًا سلفا بحسب رغبة السلطة ، بحيث تكمُن مهام السفير في حمل الرسالة وتبليغها للجهة المراد تبليغها .

ولم يُعتمد على السفير في إبرام معاهدة أو عقد صلح ، غير أنّ بعد مجيء الإسلام تغيّرت مفاهيم الرّحلات السالفة الذكر ، فأصبح لكل رحلة غرضًا ، وهذا الغرض مشروط بعدم تعارضه مع مبادئ الإسلام وشرائعه ، فأسهم الرّحالة المسلمون في وضع قواعد وشروط ثابتة لأدب الرحلة تتناسب مع عالميّة التشريع الإسلامي وسماحته ، فغيّر مفهوم الرّحلة الحربية القائم على أساس السلب والنهب إلى مفهوم عالمي لفلسفة القتال حيث جعل للقتال أُسس واضحة وأهداف مشروعة فيما اصطلح عليه برحلات الجهاد ، فكان قادة الجيوش يقومون بوصف المناطق التي يريدون فتحها ويرفعون تقاريرهم إلى الخليفة مباشرة ، ونفس المُهمّة يفعلها الوُلاة والعُمّال المُعيّنون على البلاد المفتوحة ، وبذلك يكون هؤلاء قد قاموا بدور الرّحالة بوصفهم ما شهدوا من مشاهد وروايات عن البلاد المفتوحة ، فكانت تلك الأخبار والمشاهد التي نقلوها عنها بمثابة المُحرّك الأول لرغبات الاستكشاف .

كما سهّلت الفتوحات الإسلامية أسباب الرّحلة للتجار بعد سيطرة المسلمين على الطرق الكبرى بين الأقاليم وفرضهم الحماية والأمن لسالكي تلك الطرق ، فازدهرت التجارة بين الشعوب الإسلامية وتَعَدّتْها إلى الأمم

المجاورة لها وأصبح التجار يتناقلون أخبار رحلاتهم لتلك البلدان والمناطق التي كانوا يرتادونها فكانت التجارة سببا من أسباب رواج أدب الرحلات .

ولم تعد مُهمّة التجار المسلمين تقتصر على ربح الأموال فحسب بل تعدّته ، فكانت لهم إسهامات كبيرة في نشر الدين الإسلامي في تلك الأصقاع وحسبنا في ذلك ما قام به التجار المسلمين مثلا في بلاد الهند والصين في الشرق ، وفي الغرب الاسلامي في بلاد السودان الغربي

كما ساهم انتشار الإسلام في بلاد المغرب على تنشيط الرحلات ، وظهر فيما اصطلح عليه بالرّحلات الحجازية ، والرّحلات التعليمية ، وزاد نشاط الرّحلات السّفارية بين المغرب والمشرق لربط أقاليمه ومقر الخلافة ، فعملت الدولة الإسلامية على تنظيم ذلك لتهيئة آفاق الاتصال بين أجزائه ، وللحفاظ على كيانها ومصالحها عملت أيضًا على ربط علاقات خارجية مع غير المسلمين القائمة على مبدأ حُسن الجوار فنشطت الرّحلات السّفارية بين تلك البلدان .

ولم تقتصر مُهمّة السفير على انجاز المُهمّة التي كُلّف بها فحسب ، بل أضافت الرّحلة السّفارية بُعدًا ثقافيا وسياسيا لأدب الرحلات ، بعد إقدام السُّفراء أو مُرافقيهم في تلك الرحلات على كتابة تقاريرهم عن البلد المُزار ، الشيء الذي أعطى رحلاتهم أهمية كبيرة ، حيث أصبحت تلك الرّحلات مصدرًا من المصادر الهامّة لمعرفة أحوال تلك البلدان السياسية ، والعسكرية ، والعلمية ، والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، والفنية ، وممّن برز في هذا الجانب الرّحالة المغاربة سيّما في القرن التاسع عشر الذين عملوا على تكثيف الرّحلات السّفارية برعاية ومباركة المخزن المغربي ، وكان هدفها تحقيق أمرين أساسيين هما

أولهما : استطلاع أحوال الحضارة الأوربية ، ومحاولة التّعرُّف على مواطن قوّتها ، وأسباب مدنيّتها من خلال اكتشاف أسباب القوة العسكرية ،

والاقتصادية الأوربية ، ومحاولة الاقتباس العديد من مظاهر مدنيّة أوروبا لإصلاح الوضع المُتردي في المغرب .

وثانيها : يكمُن في سد الفراغ الدبلوماسي الذي كانت تعاني منه أجهزة الحكم المغربية فيما يتعلق بموقعها التفاوضي مع الأوربيين ، الذين أصبحت لهم أطماع في المغرب ، سيّما في أوائل القرن العشرين ، بعد تكالب الاستعمار الأوربي على بلدان الشمال الإفريقي ، والمغرب واحد منها .

وفي خضمّ هذا السياق والتحولات السياسية ، والعسكرية في المنطقة ، جاءت رحلة الحسن بن الطيب بوعشرين إلى الجزائر التي نحن بصدد دراستها ، بعد أن كلّفت فيها السلطات المغربية وفدا للقيام برحلة سفارية إلى الجزائر بغرض المشاركة ضمن الوفود المستقبلة للرئيس الفرنسي ايميل لوبي في زيارته للجزائر في الفترة مابين 15 افريل إلى 24 منه من سنه 1903 م

الرحلة المراد دراستها ومدى أهميّتها

تقع الرّحلة المُراد دراستها الموسومة ب" تطريب الأسماع ، بأخبار الجزائر وما يقربها من الأصقاع لمؤلفها الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين ضمن السفر الأول من كتاب "التّنبيه المعرب عمّا عليه الآن حال المغرب لنفس المؤلف ، وتحديدًا في الباب الرابع المعنون ب" في أخبار الجزائر والسبب في وصولنا إليها، وما فيها من البهجة والرونق ، وكل ما يشتهي التي تمّ نشر ها ضمن الكتاب المُشار إليه أعلاه ، من طرف المؤرخ المغربي محمد المنوني ، في طبعته الأولى سنة 1415 هـ/ 1994 م معتمد ا في نشره على النسخة الوحيدة (ملكية خاصة) التي لم تظهر لها نسخا مثيلة لحد الآن .

تقع الرّحلة في تسعة عشر ورقة ، من مجموع ورقات المخطوط البالغ تعدادها 255 ورقة ، تبدأ من ورقة 121 - 140 ، تتعلق بالرحلة السفارية التي قام الوفد المغربي للجزائر سنة 1903 م ، بغرض الحضور ضمن الوفود الرسمية المستقبلة للرئيس الفرنسي إيميل لوبي (Émile Loubet)

الذي قام بزيارة رسمية للجزائر في الفترة مابين 15 . 24 أفريل 1903 م ، وكان الحسن بن الطيب اليماني ضمن الوفد الرسمي المغربي ، فاستغل تلك الرحلة السفارية لتسجيل مشاهداته في الجزائر.

وبالرغم من أن مُدّة الرّحلة لم تتجاوز أحد عشرة يوما - هذا في حالة عدم احتساب الأيام التي قضاها الوفد في المغرب والبحر ، واقتصر حسابنا على المدة التي قضاها في الجزائر فحسب – إلا أنّها تحمل في طياتها معلومات قيّمة ، قلّما نجدها في مصادر أخرى ، وعليه تُعدّ مصدرًا مهمًّا من مصادر تاريخ الجزائر ، عمل الكاتب على تسجيل ما شهده بأمّ عينه ، أو ما سمعه ممّن التقى بهم أثناء تلك الزيارة ، رغم أن الهدف من الرّحلة في حقيقته يطغى عليه الطابع الدبلوماسي كما أشرنا سابقا ، إلا أنّ المؤلف تعدّى الهدف المنشود ، لتشمل رحلته مجالات أخرى مُتعدّدة وقف عليها الكاتب أثناء تجواله وزياراته لأماكن ومَحال مُتعدّدة من مدينة الجزائر وضواحيها ، فمزج في رحلته تلك بين الطابع الدبلوماسي الرسمي ، وما جرى فيه ، و بين مُشاهداته بعد أن رفع تلك الصبغة على نفسه وبدا كشخص عاد يتجوّل في مدينة الجزائر ، وضواحيها ، ويُسجّل كلّ كبيرة ، وصغيرة ، شاهدها وهنا تكمن أهمية الرحلة .

عملي في الدراسة

يكمن عملي الأساسي في دراسة الرّحلة بداية بالتعريف بأسرة المؤلف ، الحسن بن الطيب مبرزًا مكانة تلك الأسرة ، والمسؤوليات التي أُنيطت بها ، بدء بجد المؤلف سيدي اليماني ، ووالد الحسن بن الطيب ، وهذا لمعرفة المحيط الذي نشأ فيه ، ثم عّرفنا بالمؤلف بداية بتعليمه ، والشيوخ الذين تلقى على أ يديهم مختلف العلوم ، ومدى تأثُّره بهم ، والعلاقة التي كانت تربطه بهم ، مبرزًا عمله ككاتب في عهدي العاهلين الحسن ، وعبد العزيز ، ومدى تقرُّبه من هذا الأخير في حلّه ، وترحاله أثناء العمل على إخضاع

القبائل المناهضة له ، فاستغلّ المؤلف ذلك لتسجيل تلك الأحداث دون إغفال المهام التي كلّفه بها السلطان عبد العزيز ، سواء أكان ذلك داخل السلطنة ، أو خارجها ، وتنقّلات الكاتب داخل المغرب والجزائر التي مكّنته فيما بعد من تدوين مُشاهداته ، ومن بينها الرحلة التي هي قيد دراستنا ، كما عملت على إيضاح جوانب عدّة عن حياة المؤلف العامة منها ، والخاصة ، مع التركيز على التعريف بمؤلفاته عدا كتابه " التنبيه المعرب " الذي تضمّن الرّحلة التي قام بها المؤلف إلى الجزائر سنة 1903م .

ونظرًا لكون عملنا ينصب في الأساس عن الرّحلة ، فقد أبرزنا أهمية تلك الرحلة نظراً لما تحويه من معلومات قيّمة شملت مناحي متعدّدة من مُشاهدات الكاتب في مدينة الجزائر وضواحيها ، وبالرغم من أنّ الرّحلة قد سبق للمؤرخ المنوني نشرها ضمن كتاب "التنبيه المعرب " غير أنّني وجد ت نفسي منجذباً نحوها ، فعملت على إعادة قراءتها وإخراجها بهذا الشّكل لاعتبارات عديد ة منها : ــ

1 ــ إنّ الرّحلة رغم محدودية أيامها ورقاتها التي لا تتجاوز تسعة عشر ورقة في المخطوطة الأصلية لها علاقة بفترة من فترات تاريخ الجزائر الذي عمل الاستعمار على طمسه ، وعليه كان لزاماً علينا جمع شذراته ، سيّما وأنها تُعدّ مصدراً من مصادر تاريخ الجزائر تمكّن المُهتمّين بالتاريخ والباحثين من سد فراغات وجوانب محدّد ة جاءت في الرّحلة قلّما نجدها في مصادر ومراجع أخرى .

2 ــ إنّ الرّحلة جاء ت ضمن كتاب يهتمّ بتاريخ المغرب الأقصى ولا يُوحي عنوانه أصلاً أنّه له علاقة بتاريخ الجزائر ولذا ارتأيت أن تكون هذه الرّحلة مستقلة عن الكتاب الأصلي .

3 ــ بالرّغم أنّ المنوني كان له السبق في إخراج الرّحلة ضمن كتاب "التنبيه المعرب " لكنّه في تقديمه للكتاب والتعليق عليه اكتفى بنشر الرّحلة

كما جاءت في المخطوط دون أدنى تعليق عليها ، وهذا ما حفّزني على إعادة قراءتها ، والتعليق عليها ، وإيضاح ما أ رى أنّه يحتاج إلى التوضيح ، معتمداً في ذلك على مصادر ومراجع لها علاقة بأحداث الرّحلة وعملت على إلحاقها بملاحق تصُب أساساً ضمن مضمونها .

4 ـ إنّ مؤلف الرّحلة عمل على إ د ماج مُشاهداته في مدينة الجزائر وضواحيها في نص واحد دون مُراعاة خصوصيات مُشاهداته المتنوّعة التي شملت جوانب متعدّدة ، ولذا عملت على إدخال عناوين ألحقتها بالرّحلة هي من إنشائي ، حتى يتسنّى للقُرّاء فهم الرحلة والفصل بين جوانبها المختلفة التي عالجتها دون المساس بالنص الأصلي ، وأملي في ذلك هو إضفاء مزيداً من التوضيح على الرحلة .

5 ـ إنّ الرحلة جاءت ضمن مخطوط من نسخة وحيدة لملكيّة خاصّة ، وهنا تكمن أهمّيتها والعمل على التعريف بها أكثر علّه يأتي يوما للكشف عن مثيلا ت لها .

التعريف بأسرة المؤلف

تُعتبر أسرة بوعشرين التي ينتمي إليها المؤلف الحسن بن الطيب بوعشرين من الأسر التي استقرت بعدوة الأندلس ومنها انتقلت إلى المغرب ، وأنّ الذي خرج من الأندلس هو الحجاج يوسف البياسي فاستقرت بداية بتونس ، ومنها إلى تلمسان ، ففاس ، ومن هذه الأخيرة لسلا ، ثم لجبل الزبيب مدّة لينتهي بها الأمر إلى مكناس التي اتّخذته مقراً أخيرا ، فنُسبت لها ، وهذا ما يفهم من الإشارة التي أوردها قاضي مُراكش نقلا عن الإخباري والنّسابة الحاج قدور الواني حيث يقول : " أ نّي لأعرف أصل هؤلاء القوم بني العشرين ، فأنّهم من بلاد الأندلس ، ثم انتقلوا إلى تلمسان ، ثم لسلا ، ثم مدّة كانوا بجبل الزبيب ، ومن ثم انتقلوا لهذه البلدة (أي مكناسة) ، وهم ينتسبون إلى الأنصار وهذا ما أكّده جد المؤلف اليماني ، دون اعتراض حينما

ذكر ذلك ، عدا تحفُّظه على تلمسان حيث يقول :" صحيح كل ما ذكره عن سلفنا ، إلا أنّني ما عرفت إلا الانتقال من تونس ، لفاس لا إلى تلمسان ، ثم فاس ... ، ومن سلا إلى الجبل ... ، ومنه إلى مكناس " [1] "

ونظراً لما تحظى به أسرة بني عشرين من مكانة في فاس ، فقد جعلها صاحب بيوتات فاس ضمن بيوتاته ، وممّا جاء فيها قوله : " ومنهم بيت بني عشرين الخزرجيين ، بيتهم بيت علم ، وتحصين وأصالة ومنهم الفقهاء والأئمة " [2] "، فنال جدّه سيدي اليماني حظوة ، سيّما في مدينة سلا ، فوصف بعلمه الغزير وأنه كان منظوراً إليه بعين الاعتبار ، والوقار ، والتّعظيم ، والتجليّة ، والفخار، كما حُظي بالثّناء ممّن عاصروه ، وعرفوه ." [3] "

أما والده الطيب بن اليماني ، فقد عيّن للسلطان سيدي محمد ، ليقوم بتأديبه ، وتهذيبه ، وتدريبه ، ثم أصبح ملازمًا لحجابته ، قائما بكتابته ، إلى أن حدثت واقعة وجدة ، فاتُّهم وكُبراء الجيش بالتّهاون وسوء التّدبير في ذلك الحادث ، فتمّ إبعاده ، وصودرت أمواله ، ولبث بمكناسة مدّة ، عانى فيها أشدّ المُعاناة دون أن ينفعه أحداً بنافعة ، ولا راعى له حُرمة وبقي على هذا الحال نحو خمس سنوات إلى أن بويع السلطان المذكور ، فأعاده إلى الخدمة ، وبُوّئ بعد الشّقاء ، حيث أُسند له أمر الصدارة (الوزارة) ، فكان نعم المسؤول ، حيث عُرف باقتصاده في الملبس والمطعم ، وتقلّله من الأتباع والخدم ، ولعدله لم يَستثن حتى أهله ، وأصحابه من استخراج الحقوق وداوم على هذا المنوال يُعالج الأسقام إلى أن وفاته المنيّة ." [4]"

ونظراً للدّور الذي قام به أثناء تولّيته الوزارة ، فقد خصّه بعض معاصريه بتآليف نذكر منها تأليف محمد الغالي العمراني اللجائي " [5] "الموسوم ب " دوحة المجد والتّمكين في وزارة ، ونسب ابن عشرين " [6] " ، و خصّه عبد الله محمد اكنسوس المُراكشي هو الآخر بتأليفين ، الأول تحت عنوان " حسام الانتصار في وزارة بني عشرين الأنصار " والثاني"خمائل الورد والنسرين في

وزارة بني عشرين " [7] " ، كما نال مدح الشعراء سيّما الفقيه العلامة السيد عبد الرحمان الشريف ، ومما جاء فيه قوله :

فخراً بني العشرين سُدتم دائما انتم جليل يقتفيه جليل

هذا الوزير الطيب الأفعال من علياؤه للمكرمات مقبل

أمسى بأوج السعد بدرا طالعا لا يعتري ذاك الجلال أفول " [8] "

ممّا سبق يتضح لنا أنّ الحسن بن الطيب نشأ في أسرة ذات علم ، وأصالة ، منهم فقهاء أئمة ، كالفقيه أبي الحسن علي بن عشرين الذي وصفه صاحب بيوتات فاس بكونه "حافظا محصّلا متبحّرا في الفقه وعلى يده تفقّه فقهاء المغرب " [9] ".

وعليه ليس بالغريب أن تتدرّج أسرة الحسن بن الطيب في المسؤوليات ، فوصلت إلى أعلى المراتب بداية بجده سيدي اليماني ، ووصولا لوالده .

ولم تتوقف تلك المسيرة لدى سابقيه ، بل استكملها الأبناء ، حيث تُشير المصادر إلى تَبوُّأ إخوة الحسن بن الطيب الكتابة لدى سلاطين المغرب " [10] "، ليس هذا فحسب ، بل منهم من أصبح وزيرا ، مثل أبو العلاء إدريس الذي وصفه صاحب " الجُمان " بالفقيه الأديب البارع الحسيب ، العليّ الهمّة الأبيّ المذمّة " [11] " إذًا فلا مندوحة أن يُساوى الحسن بن الطيب بجده ، أو والده ، أو إخوته .

التعريف بصاحب الرحلة

بالرّغم ما وصلنا عن أسرة بني عشرين عامة ، والأسرة القريبة لصاحب التُّرْجُمة من اهتمام المؤرخين إلا أنّنا نجد النقيض بالنسبة للحسن بن الطيب ، حيث لم يُوليه المؤرخين ، ولا أصحاب التّراجُم أدنى اهتمام ، بالرغم من قُرب عصره ، حيث لا نجد له ذكر لا " في السعادة الأبديّة " ، لابن المؤقت ، ولا " في إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع " ، أو "إتحاف أعلام الناس " لابن زيدان كما لم يرد له ذكر في الدرة السنية " ، لابن داني ، ولا عند غريط ، في " فواصل الجمان " وعليه فإنّ حال الحسن بن الطيب ينطبق عليه تنبيه الإمام الأوحد أبو حامد العربي الفاسي الذي أشار إلى

تقصير المغاربة بعلم التراجُم والتاريخ في ديباجة مرآته بما لفظه :" وقد وسموا المغاربة بالإهمال ، ودفن فضلائهم في قبري تراب ، وإخمال ، فكم فيهم من فاضل نبيه طوى ذكره عدم التّنبيه ، فصار اسمه مهجورا ، كأن لم يكن شيئا مذكورا " [12] ".

وفي هذا المنحى نفسه يتعجّب صاحب "الأعلام " من أهل مُراكش بالخصوص لكون الخصلة السابقة الذكر سببا في دفن سابقيهم ، ولاحقيهم حيث يقول : " فإذا أهملوه ، أهمله غيره ، وجهلوا أمره " [13]" وعليه فإن الإشارة الوحيدة التي جاءت في حقّه تلك التي أوردها محمد المنوني أثناء تعريفه بالمؤلف حيث يُشير إلى أنّه استقى تلك المعلومة المُقتضبة عن الحسن بن الطيب من مُؤرخ مُراكش ، وقاضيها العباس بن إبراهيم الذي وصفه بقوله : " ومنهم حسن الكاتب ، كان رجلا له مُروءة ، وسمت حسن ، وخط مقبول وملكة في التّرسل ، وله علاقة بالتاريخ ، ومعرفة بالشطرنج ، ألّف كتابا في الدولة يوجد عند ولده عبد العزيز استعمل في الكتابة مع بناصر غنام إلى الجزائر ووُلي على طنجة قبل نصر مولاي عبد الحفيظ بها ، ودفن بباب أغمات" [14] " ، عدا هذه الإشارة لم نقف على معلومات تخصّه ، وكانت وجهتنا الوحيدة تلك الإشارات التي أوردها عرضا على جانب من حياته في السفر الأول من مؤلفه " التنبيه المعرب عمّا عليه الآن حال المغرب " ، فيشير إلى اسمه الكامل باسم الحسن بن الطيب اليماني بوعشرين الخزرجي المكناسي أصلا ، مراكشي المولد ، والنشأة ، والدار " [15] "،لا نعرف تاريخ ولادته تحديدا ، إذا استثنينا تاريخ 1250 هـ / 1833 م الذي حدّده المنوني بالتقريب ، بناءا على وفاة زوجته أمّ كبار أولاده سنة 1295 هـ / 1878 م " [16] " ، ويخبرنا صاحب الترجمة عن أصل والدته الذي يعود إلى أولاد أبي السباع مبرزا محاسنهم ، وصفاتهم الحميدة .

والراجح أن هدف المؤلف من ذلك تبيان حسبه ونسبه ، فوصفهم بقوله أنهم : " امتن النّاس دينا وعلما ، وأدبا ، وحفظا ، وصيانة ، وشجاعة ، وفروسية ، وكان ذلك مغروزا في طباعهم حتى النساء وكان الحسن مقصورا عليهم ، وكان النّاس يضربون الأمثال بحسنهم ، وصفاء أذهانهم " [17] "، كما عمل على إبراز مكانة والده ، بالرغم من أنّ والده كان ذائع الصيت ، وهذا بنقله للوصف الذي كتب على شاهد قبره ، ومما جاء فيه : "هذا قبر الفقيه العلامة ، الدراكة ، الفهّامة ، الوزير الأعظم ، الصالح الجاري في ميدان المنافع ، والمصالح ، سيدي الطيب ، ابن الفقيه ، الكاتب النزيه ، الخيّر سيدي اليماني " [18]".

تعليمه

تلقّى الحسن بن الطيب تعليمه بمسقط رأسه مراكش ، على يد علماء بلغت سمعتهم الآفاق ، أمثال الفقيه علي زركو، الذي كان يحبّه ويقدّمه [19]" والأديب محمد السّباعي الدرباكي ، الذي يقول عنه أنه :" بسببه أنقذه الله من ظلمات الجهل ، والردى " [20] "، و بفضل هذا الأديب سرى إلى المؤلف التفنّن في التعبير نثرا وشعرا ." [21] "

ويبدو لنا من خلال حديثه عن شيخه محمد السباعي الدرباكي ، أنّ علاقته به أرتقت إذ لم يعد شيخا له فحسب ، بل جمعت بينهما محبّة ، وصداقة ، ومُرافقة ، دامت ما ينيف عن عشرين سنة ، لدرجة أنّه وصفه بالصّاحب ، والأخ ، والحبيب ، وإليه يرجع الفضل في تعريفه وترغيبه في الطريقة القادرية التي يتبعها شيخه ، ومثله الأعلى ماء العينين " [22] "، هذا الأخير الذي يعدّ أحد شيوخه في العلوم كان يكنّ له محبّة خاصة لدرجة أنه كان يناديه ب "ولدي " [23] " ، وتمتّنت تلك الصّلة بين الحسن بن الطيب وشيخه حيث كان يُبادله الحسن بن الطيب ، وأهله ، وأولاده الزيارات ، وهذا ما نستشفّه من قوله " وقد زُرناه ، والحمد لله مراراً ، وزاره أولادنا ، وأهلنا " [24] " .

ولم يكن تبادل الزيارات من طرف واحد فحسب ، بل أنّ الحسن بن الطيب حظيّ بزيارة شيخه له وجميع أهله ، وأولاده كبارا ، وصغارا ، ومن فرط حُبّ الشيخ لتلميذه أنّه تمنى له الارتقاء إلى أعلى الدّرجات ، ودعا له الله تعالى أن يمكّنه مرتبة أعلى من مرتبة والده " [25]".

مما سبق يتّضح لنا أنّ نشأة الحسن بن الطيب في أسرة ذائعة الصيت علما ، ومكانة ، وتعليمه على يد كبار العلماء ، والأدباء ، مكّنته من صقل معارفه ، إذاً فلا غرابة أن يُختار وهو في ريعيان شبابه من ضمن كتبة السلطان الحسن ، الذي كان يعجّ به بلاطه بكبراء الكُتاب ، والأدباء ، الذين وصفهم بقوله بأنهم : " كانوا نجوما زواهر ، وبدورا ظواهر...، أئمة الأقلام ، ومصابيح الظلام وفرسان الكتاب " [26]" وهذا ما زاد من تمكّنه ، بحيث لم يستغن عنه السلطان عبد العزيز الذي تولى السلطة بعد أبيه ، فأبقاه ضمن كتبته ، وقرّبه إليه ، وأصبح يُلازمه في حلّه ، وترحاله ، في أنحاء متفرّقة من المغرب ، أين تولّى كتابة رسائل الإعلام بانتصاراته على بعض القبائل ، مثل قبيلة الرحامنة ، وقبيلة الأعشاش بالشاوية " [27]".

ولم تقتصر مهامه على الكتابة فحسب ، بل تعدّت مهامه ذلك ، فكان الحسن بن الطيب ضمن الوفد الذي كلّف بمهام خارج السلطنة في رحلته السفارية إلى الجزائر سنة 1903م ، التي نحن بصدد دراستها " [28] " ، أو بعض المهام داخل السلطنة نفسها ، وهذا ما نستشفّه من قوله : " وأنا الآن بثغر الجديدة في غرض مهم للسلطان " [29] "

ترحاله

اهتمّ الحسن بن الطيب بوعشرين بذكر رحلاته التي قام بها لمختلف الجهات ، والأماكن التي زارها سواء أكان ذلك داخل السلطنة ، أو خارجها ، والأشخاص الذين صاحبهم ، أو التقى بهم في تلك الرحلات " [30] " ومن خلال تتبّعنا لترحاله اتّضح لنا أنّ رحلاته قد انحصرت في ثلاث دوافع أساسية :

أولها : ــ تلك الرحلات التي لازم فيها السلطان عبد العزيز باعتباره كاتبا له .

وثانيها : تدخل ضمن المهام التي كلّف للقيام بها داخل السلطنة ، أو خارجها .

أما ثالثها : هي رغبته في زيارة أضرحة الأولياء والصّالحين ، وهي الرغبة التي سيطرت عليه ، وهو لا يزال في بداية شبابه ، باعتبار أنّ زيارة أضرحة الأولياء والصالحين كانت في اعتقاد الناس آنذاك وخصوصا الذين لهم ميولا صوفية . وهو واحد منهم . وسيلة لنيل الخير ، والبركة ، وتربية روحية تنمّي صفات الصلاح ، والولاية " [31] ".

وبعد سرد الحسن بن الطيب لرحلاته المختلفة والأماكن التي زارها ، أو وقف عليها ، لم يبق له طلب ورغبة بعد ذلك إلا زيارة بيت الله الحرام ، وزيّارة قبر نبيّه عليه السلام ." [32]

جوانب من حياته الخاصة

لم يقتصر الحسن بن الطيب في تُرجمته لنفسه بذكر الجوانب العامة من حياته كما يفعل عامة المؤرخين في تُرجماتهم لأنفسهم ، بل عمل على إبراز بعض الجوانب الخاصة من حياته بعضها متعلّقا بشخصه والبعض الآخر بأسرته ، فيحدّثنا مثلا عن حياته الزوجية ومُصاهرته لأولاد أبي السباع بواسطة أبيه الذي هو صهرا لهم ، والذين كان يُحبّهم كثيرا ، ومن هذه الإشارة يُفهم أنّ لوالد الحسن بن الطيب دوراً في اختيار زوجته السباعيّة ، وهذا ما يؤكده في قوله :"وكانت له (أي لوالده) مُصاهرة معهم وكذلك أنا بمباشرة والدي ، وحمدت مغبّة تلك المُصاهرة ، وشكرتها ، وجاءني منها أولاد نُجباء ، وأُدباء ، والحمد لله " [33]."

كما أنه لم يُخف سبب هلاك زوجته ، وذكر ذلك صراحة دون أدنى تحفّظ ، وهذا ما عبّر عنه بقوله : " والشريفة العباسيّة والدة كبار أولادنا .... ،

المتوفاة بداء الطاعون "[34]"، ولم يكتف بذلك فحسب بل ذكر بعض الجوانب من حياتها لكونه أقرب الناس إليها فوصفها بقوله : " أنها كانت من العابدات القانتات الصالحات ، كانت تحفظ ما تيسّر من القرءان العظيم ، والدعوات الرائقات ، وتقرأ المكتوب ، وتخشى من علاّم الغيوب "[35] .

وبالرّغم من عدم تحفّظ الحسن بن الطيب عن جانب من حياته الخاصة ، إلاّ أنه يبدو لنا أنّه عمل على إخفاء بعض الحقائق عن حياته الزوجية ، إذ لم يُشر بصريح العبارة إن كان قد أقدم على الزواج بعد هلاك زوجته الشريفة السباعية أم لا ؟ لكن بعد تتبّعنا لأقواله نفهم من بعض التّلميحات أنّ الحسن بن الطيب كانت له زوجة ثانية ، وحسبنا في ذلك أنّ الحسن بن الطيب في حديثه عن زوجته الأولى عادة ما يقرن ذلك بكلمة " والدة كبار أولادنا "[36]" وهو ما يُفهم منه أنّه له زوجة ثانية أنجب معها أولادا صغارا بعد وفاة زوجته أمّ كبار أولاده .

كما أنّه بدا صريحا متذمّرا من حياته العملية دون خوف عما ينجرّ عن تصريحاته تلك من ذوي السلطة والقرار على منصبه ، أو حتى على حياته ، وهذا في حديثه عمّا آلت إليه خطّة الكتابة ، وحال الكتبة وهو واحد منهم ، فعبّرعن تذمّره بقوله : " وقد أخنى الدهر اليوم على تلك الخطّة الشريفة ، وغازلها البؤس ، والكآبة المخيفة ، فتباً لدهر ما رعي حقوقها ، ولا أبقى شروقها ، فحضرة الكُتّاب حضرة البهاء والنور ، والسمت المقبول المشكور ، والدب المحبوب المبرور، وخطّتهم لا خطّة فوقها بعد الوزارة ، فهم لسان الدولة ، ويمينها ، وبهم تتمّ نخوتها ، وشهرتها ، وتفخيمها ، وكان الكتّاب يتباهون في الزمن الأول ويبالغون في إكرامهم وإعظامهم ، وترعى حقوقهم عند سائر الدول ، ولم يزالوا في كل ملّة منظور إليهم بعين الوقار والإجلال ، وحالهم اليوم حال اليتامى والنسوان الأيامي ، جبر الله صدعهم وتلافى أمرهم "[37]

مؤلفاته

نظراً لعدم اهتمام المؤرخين وأصحاب التّراجُم بالحسن بن الطيب سواء أكان ذلك من معاصريه ، أو ممّن جاء بعده ، فإنّه من الصّعب بمكان تحديد مؤلفاته عدا التأليف المعروف الذي قدّم له وعلّق عليه المؤرخ محمد المنوني الموسوم "بالتنبيه المعرب عمّا عليه الآن حال المغرب ، هذا إذا اعتمدنا الفرضية التي ورد ذكرها في الإشارة الوحيدة المقتضبة عن الحسن بن الطيب بأنّه ألّف كتابا في الدولة يوجد عند ولده ، والقصد به هنا كتاب " التنبيه المعرب " السابق الذكر .

ولعلّ ما يدعّم هذه الفرضيّة أن الحسن بن الطيب أثناء تقديمه لكتاب التنبيه " يُشير أنّ سبب إقدامه على هذا التأليف غرضه الأساسي منه هو "الترويح عن النفس [38] "، ويُفهم من هذه الإشارة أنّ الحسن بن الطيب لم يعد التأليف من بين اهتماماته ، وأنّ ما أ قدم عليه يدخل فقط ضمن تسجيله لمذكراته وانطباعاته عن الفترة التي عايشها أيام العاهلين الحسن الأول ، وعبد العزيز ، وهذا ما يؤكده في بداية الكتاب بقوله " وما ذكرت فيه إلا ما أ سندته لعلمي ودرايتي ، وفهمي الركيك وغباوتي " [39] "، ثم يُكرّر نفس الملاحظة في نهاية الكتاب بقوله :" وإنّما ذكرت ما ذكرت من حفظي ، وفهمي ، وبحسب ما وصل إليه علمي " [40] " وفي موضع آخر ينحوا مثل هذا المنحى حيث يقول : " وما ذكرت إلا ما عاينته ورأيته وشاهدته ، ولم نستند فيه لغيري " [41] " كما أنّه يشكوا انعدام المصادر التي يمكنه العودة إليها بسبب تركه لها في بلدته مراكش " [42] " ، إذاً فهو بهذه العبارات يرفع الحرج عن نفسه . وعليه فإنّنا نرى أنّ مثل هذه التبريرات التي قدّمها المؤلف غير كافية فيما إذا كان هدفه الفعلي هو التأليف وتحرّي الحقائق .

ونظرا لعدم توفّر المعلومات عن الكاتب فإنّ مصدرنا الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه فيما إذا كان للحسن بن الطيب تآليف ، وتقاييد غير " التنبيه

المعرب " هي العودة إلى تأليفه هذا علّه يتسنّى لنا معرفة ذلك ، وبتصفّحنا له نستشفّ بعض الإشارات توحي بأنّ للحسن بن الطيب بعض التقاييد ، مثل التقييد المسمّى "تطريب الأسماع بأخبار الجزائر ، وما يقربها من الأصقاع " الذي نحن بصدد دراسته ويذكر أنّ نسخة من هذا التقييد منحها للسيد بناصر بعد أن طلبها منه ، ولولا منحه لها لزاد لذلك التقييد زيادات يقول أنها ظهرت له ، ولحرصه أن تكون نسخة واحدة فضّل الاكتفاء بما فيها " [43] "وقد وصلنا هذا التقييد بعد أن جعله ضمن مضامين كتابه "التنبيه المعرب ".

كما يبدو لنا أنّ المؤلف قد خصّ السلاطين المغاربة بدواوين شعرية ، وهذا ما يفهم من قوله : وبالجملة فهذا السلطان (أي السلطان الحسن) ختمت به دواوين سلاطين المغرب ، كما يشير إلى مرثيّة وتعزية في حق السلطان الحسن ، التي هي من جملة كتبه التي تركها بمراكش ، كان ينوي إلحاقها بكتابه " [44] " كما أشار في ترجمته لشيخه في التصوف ماء العينين بأنّه له تقييدا في نسب تلك السلسة الشريفة تركه هو الآخر ضمن الكتب التي تركها بمراكش ، ثم يستطرد قائلا : وإن ارتفع العائق ووصلت محلّي ، فإنّي نلحقه بهذا الموضع " [45] ". عدا هذا الذي ذكره لم نقف على شيء آخر للمؤلف سوى تلك الكناشة الصغيرة الغير الكاملة التي تحوي بعضا من نثره وشعره التي جمعها أحد أبناء المؤلف ، والتي تقع في 31 ورقة من الحجم الصغير الموجودة بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم 1261 ج .

ملخص الرحلة

يبدأ الكاتب رحلته بالحديث عن سبب زيارة الرئيس الفرنسي للجزائر ، وتونس ، وإرسال السلطان المغربي عبد العزيز لوفد رسمي للمشاركة مع وفود الدول الأخرى في استقبال الرئيس الفرنسي ، وكان مؤلف الرحلة من بين أعضاء هذا الوفد ، فاستغل تلك الزيارة وقام بتسجيل مشاهداته عن أحوال

الجزائر مستهلاّ رحلته بذكر الأسباب التي دفعته لكتابة رحلته ، والغرض المنشود منها .

بدأ المؤلف تسجيل أحداث الرحلة السفارية بداية من مدينة فاس بعد أن أشارت عقارب الساعة إلى العاشرة من يوم الأربعاء الموافق لليوم الثاني من محرم سنة 1321 هـ / 1903 م مرورا بعدة مناطق ليصل الوفد بعد ستة أيام إلى ثغر طنجة التي مكث بها الوفد مدة .

وفي اليوم الثالث عشر من محرم كان الإبحار صوب الجزائر على متن سفينة فرنسية ، وبعد رحلة دامت يومين رست السفينة بميناء الجزائر ليستقبل الوفد من طرف قبطان ممثّلا عن الحاكم العام للجزائر وينقل إلى محل إقامته . وفي المساء عاد القبطان ونقل الوفد في عربة إلى مقر الحاكم العام التي اعتذر مسبّقا للوفد عمّا يبدر من تقصير في محل الإقامة ، ثم سأل الوفد عما تحمّله من مشقة السفر واعتذر لهم أيضا عن سبب تغيير وجهة استقبال الرئيس من وهران إلى الجزائر وشرح أسباب ذلك ، فشكروه على ذلك ، وعادوا إلى محل إقامتهم .

وفي يوم الأربعاء الموافق للسادس عشر من الشهر وصل الرئيس الفرنسي للجزائر لينزل بالقصر المُعد لاستقباله (قصر الشتاء) ، وبهذا الأخير تمّ استقبال السفراء ، والأعيان ، وكان الوفد المغربي هو الآخر من ضمن الوفود التي حظيت بشرف الاستقبال من طرف الرئيس ، وكبار الضباط والوزراء ، مُبدياً سعادته لهم ، وفرحه بسفارة المولى عبد العزيز ، ثم تمّ تسليم كتاب السلطان وعاد الوفد إلى محل إقامته .

وفي عشية اليوم نفسه استدعيّ ا لوفد لتناول وجبة العشاء المقامة للسفراء ، والأعيان ، البالغ عددهم نحو المائة والثمانين ، وبعد تناول العشاء تمّ الاستماع للخطبة التي ألقاها الرئيس على الحضور ، وبعدها تمّ الانتقال إلى قصر الصيف ، الذي جرى فيه الحفل الراقص الذي دام إلى ساعة متأخرة من الليل .

وفي صبيحة يوم الخميس من الشهر حضر الوفد الاستعراض العسكري ، وتوزيع النياشين على كبار الضباط واختتم الاستعراض العسكري بمرور الفرق المختلفة أمام الرئيس .

وفي اليوم ذاته استدعي الوفد المغربي لحضور الحفل الذي أقامه أعيان مدينة الجزائر على شرف الرئيس ، والوفود المشاركة ، أين تمّ إلقاء خطبتين من طرف أعيان مدينة الجزائر لتليها خطبة الرئيس مباشرة ، ويغادر بعدها مدينة الجزائر باتجاه وهران ، وتلمسان ، وغيرهما ُ إلى تونس ، ونواحيها ليعود إلى باريس .

بعد انتهاء مراسيم استقبال الرئيس شرع الوفد في جولاته في المدينة ، فكانت الانطلاقة بأداء صلاة الجمعة في الجامع الكبير، وزيارة ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي ، والجامع الجديد ، وفي اليوم التاسع عشر من الشهر قام الوفد بجولة خارج المدينة استغرقت يوما كاملا وصل فيها إلى منطقة بئر خادم .

وفي يوم الأحد الموافق للعشرين من الشهر قام الوفد بزيارة المدينة أين تمّ معاينة أبنيتها الرائقة وحوانيتها الفائقة ، وشوارعها الكثيرة ، المفروشة بالحجر المنحوت. وفي اليوم الحادي والعشرين من محرم خصّ الوفد زيارته لمحل الرصد الواقع خارج المدينة ، أين حظي باستقبال المشرفين على تلك الهيئة ، ودار نقاش بين الوفد ، والمشرفين على الهيئة ، وكانت استفساراتهم تنصّب فيما إذا كان هناك اهتمام لأهل فاس بهذا العلم ، فأجا بوهم أنّ هناك من يهتم به ، لكنه غير مشهور ، وبعد يوم كامل كانت عودة الوفد إلى محل الإقامة بحلول وقت المغرب لبعد المنطقة عن محل الإقامة ، ولكون الطريق المؤدية لهيئة الرصد تقع ضمن الجبال والربى .

وفي صبيحة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر توجّه الوفد لزيارة المحجر الصحي الواقع على شاطئ البحر الذي أعدّ قسم منه خصيصا للحجاج المصابين بالأمراض المعدية ، وهو محل في غاية الجمال والبهاء لكثرة

نباتاته ، وتنوع أزهاره ، وأشجاره ، وحظيّ الوفد باستقبال الطبيب المشرف على المحجر الصحي ، الذي طاف بمعيتهم على المرضى ، ففرحوا بزيارتنا ، وكانت العودة إلى محل الإقامة مساءا بعد أن عاينا في طريق عودتنا عجائب الأبنية ، وغرائب الغروس ، وكان ذلك من نتاج السيّاسة التي انتهجتها الدولة في توزيع الأراضي على الأشخاص الذين يبدون عناية بها وتمليكها إياهم بعد عشر سنين فيما إذا ثبت اعتنائهم بها ، فتسارع الناس لذلك ، وأقدموا على عمارتها حتى صارت جنّة .

ولم يكتف المؤلف بما وصفه سابقا ، بل شمل وصفه أيضا وسائل النقل المختلفة المستخدمة في مدينة الجزائر والتي أطلق عليها اسم الكراريص (العربات) وعدّدها ، فمنها التي تجرّها الخيول ، والتي تسير بالكهرباء ، والسيارات التي تسير بالغاز ، كما أشار إلى استخدام الدرّاجة كوسيلة نقل بكثرة لدرجة أن غالبية الناس كانوا يستخدمونها في تنقلاتهم ، وفي قضاء حاجتهم . ومن بين ملاحظاته التي أبداها في رحلته هي وفرة المواد الغذائية وتنوعها ، مع استقرا أسعارها .

كما شملت ملاحظاته طريقة تدريب العسكر في الميدان ، والطرق المتّبعة فيها ، والكيفيّا ت المتعدّدة في القتال كالمطاردة ، والطعن ، والضرب ، وذلك استعدادا منهم لخوض الحرب ، ولم يكن شعلهم الشاغل سوى ذلك . وعمل على إبراز المستوى التعليمي لفئات المجتمع فذكر بأنّ عامتهم يقرءون ويكتبون رجالا ونساء وأطفالا مع تلميحه لمشاركة المرأة لزوجها في العمل واحترامها له .

ولم يستثن المؤلف في رحلته زيارته لحديقة الحامة الفائقة الجمال ، المتّسعة الفناء ، الغنيّة بتنوع نباتاتها وأشجارها ، وأ زهارها التي كانت تستقدم من بلدان عديدة كا لهند والصين وأمريكا ، واسبانيا ، وغيرها من البلدان ، وغرسها بها قصد الاختبار فإن صلح غرسها أكثروا منها حتى

يصبح ذلك معروفا لدى العامة والخاصة ، وتباع للناس سواء في الداخل أو لمن أراد توجيهها للخارج ، وهذا ما يدر عليهم أرباحا كثيرة مع إشارته إلى ما تحفل به حديقة الحامة من الحيوانات كالنعام والطاووس .

ومما أثار استغراب المؤلف أنّه بالرغم من أنّ مدينة الجزائر تعجّ بالخلق الكثير إلا أنها تبدو هادئة فلا صخب ولا صياح حتى في أسواقها ، ومن جملة ضبطهم أنك لا تلاحظ فيها مشاجرة إذ كل واحد منشغل بعمله . وختم وصفه لمشاهدته في مدينة الجزائر لمرساها ، وما يتمّيز به من الحسن وكثرة مرافقه وآلاته ، ولتسهيل نقل السلع تمّ ربطه بالقطار لتصريف السلع ونقلها لأماكن أخرى .

وفي ختام رحلته أشار إلى أنه لو تتبّع الجزئيات من أحوال الجزائر لتطلّب ذلك منه كتابة مجلدات ، ولا ستغرق منه مدة طويلة ، وعليه فقد اكتفى في رحلته على بعض النقاط دون غيرها ، والتي تبدوا عنده معروفة لدى الناس ، ومشهورة عند سائر الأجناس ، فهو وإن كان كذلك فهو غير معروف عند أناس آخرين ، سيّما وأن الناس متباينون في النّقول ، والعقول ، وأنهى المؤلف رحلته وتقييده الذي سمّاه "تطريب الأسماع بأخبار الجزائر ، وما يقربها من الأصقاع " لما عزم على الرحيل لبلاده ، فكان الفراغ من كتابته في يوم السبت السادس والعشرين من محرم سنة ألف وثلاثمائة وإحدى وعشرون .

مضمون الرحلة الأصلي

في أخبار الجزائر والسبب في وصولنا لها وما فيها من البهجة والرونق

قد قدّمنا أنّ الدولة الفرنصوية لما حدث بالمغرب ما حدث اقتضى نظرها وصول كبيرها المسمّى بري زيدان " [46] " لقطر الجزائر وتونس لاختبار الأحوال هنالك وأن السلطان وجه وفدا من قبله لملاقاة ابر يزيدان بالجزائر ، حيث الجزائر مجاورة للمغرب ، فعيّن لذلك أمينه الأ بر الأجر السيد بناصر

غنام الربا طي "[47]"، وعينني معه "[48]" ، وقد قيّدت تقييدا فيما وقفت عليه من أحوال الجزائر ، وابتدأ ت من اليوم الذي خرجت فيه من فاس ، واتيت به في هذا المختصر ليلا يتلف ويضيع ، راجيا التماس العذر ممن يقف عليه ويراه ونصه :

بسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده ، الحمد لله رب العالميين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأ صحابه أ جمعين وبعد :

فأقول وأنا العبد الفقير وأنا العبد الحقير ، وأسير ذنبه الفقير ، المعترف بالعجز والتقصير ، والضيف الفاني ، الحسن بن الطيب بن اليماني ، المعروف ببوعشرين ، كان الله تعالى له ولوالديه في كلا الدارين بمنّه وكرمه آمين ، فإنه لما قدر الله عز وجل في سابق أزله وصولي لبلاد الجزائر من المغرب الأوسط وجّهني إليها أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد العزيز "[49]" نصره الله نصرا مبينا ، وفتح له فتحا عزيزا مكينا ، بواسطة وزيره الأجل ، الوجيه الأديب الأفضل ، الفقيه اللبيب الأمثل ، نادر الزمان ، ووحيد العصر والأوان ، سيدي عبد الكريم بن سليمان "[50]" ، كان الله له فيما يكون وما كان ، مع خد يمه الأجل ، الوجيه اللبيب الأحفل ، الأمين الأود الأنبل ، السيد بناصر غنام الربا طي حفظه الله ، المعيّن للسفارة لذلك الوطن نيابة عن جلالته الشريفة ، ذات الظلال الوريفة "[51]"، بقصد ملاقاة ابر يزدان كبير كبراء الدولة الفرنصوية العظيمة وتهنئته على وصوله للجزائر بسلامة وعافية أداء لحقوق المجاورة التي حض الشرع على المحافظة عليها "[52]" ، و إلقاء زمام المواصلة إليها ، فامتثلت أمره العالي ، بعد أن لم يكن ذلك يخطر ببالي ، علما بما عليه حالي .

سبب تأليفه للرحلة

ولما عزمت على النهوض من فاس تعلق ببالي أن أقيّد ما لابد منه باختصار مما نعانيه في هذه الوجهة المباركة ترويحا لنفسي ولمن لم يشاهد ما نشاهد ه من أبناء جنسي ، وكنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى في الإقدام على هذا الخطر الذي هو من شأن فحول الرجال الذين لا تعتريهم في ميدان البلاغة الأوجال ولا يتعسر عليهم البيان بحال ، ولما رأيتهم يقولون مالا يمكن كلّه لا يترك كلّه أقحمت نفسي لنيل هذا الغرض ، وقمت ببعض ماله من الحق المفترض ، اقتداء بمن سلف من الأعلام الراجحين الأحلام ، الذين سنوا تخليد الأخبار وتسطير الآثار ، ليعتبر المعتبرون ، ويتفكروا في مصنوعات الله ومخلوقاته وما بينها عند تنازح الأبدان ، وتباعد الأقطار من البون " [53] ". ولنشرع الآن في المقصود متوكلا على الواحد الأحد المعبود ، وسعينا به على كل معترض بغيض حسود

الخروج من فاس والانطلاق صوب الجزائر

خرجت من فاس العطرة الأنفاس صانها الله من كل مكروه وبأس وقت الضحى في الساعة العاشرة من يوم الأربعاء الثاني من محرم الحرام ، وهو اليوم الثالث منه عند أهل الجزائر عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف ، وبتنا بنازلة وادي مكس " [54] "، وفي اليوم الثاني بتنا في وادي سبو " [55] " أمام الحجر الواقف ، وفي اليوم الثالث بالشماخة كتفاحة ، وفي اليوم الرابع بتنا بظاهر القصر الكبير " [56] "، وفي اليوم الخامس بتنا بمحل يسمى ابن الريان ، وفي اليوم السادس . يوم الاثنين . وصلنا لثغر طنجة ، حاطه الله وصانه من صروف الزمان ، وطوارق الحدثان فتلاقيت مع الأمين المذكور رعاه الله ، ودفعت له من المكاتيب الشريفة التي وجهت له معي ، وناجيته بما حملته من شريف الحضرة ، ثم تلاقينا بعد ذلك بنائب الدولة على العادة المعهودة ، والطريقة التي هي بعين الاعتبار مشهودة .

ركوب البحر

وفي اليوم الأحد الثالث عشر من الشهر ركبنا البحر بعد العصر في فركاطة لجانب الدولة الفرنصوية على رأس الساعة الخامسة ، وهذا اليوم هو الثاني عشر من شهر ابريل العجمي بالحساب المسيحي والثلاثون من مارس بحساب الروم وهو الذي عليه المسلمون ، وقد قابلنا رئيس الفركاطة ببشر كبير وفرح كثير ، واعتناء جليل أثير ، وبقي المركب راسيا إلى نصف الساعة الثامنة بعد العشاء ، واقلع يخترق البحار ، ويشق ماءها البعيد الأغوار ، الفسيح المضمار ، المتقلب الأطور، المتلاطم الأمواج آناء الليل وأطراف النهار ، وسار الليل كله والنهار كله ، وليلة الثلاثاء كلها سير السوابق ، لم يفته سابق ولم يلحقه لاحق .

الرسو بميناء الجزائر واستقبال الوفد

وفي صبيحة الثلاثاء الخامس عشر من الشهر عند الشروق أرسى بنا في مرسى الجزائر ، فظهرت لنا المدينة في حسنها وبهجتها كالعروس تجلت من خدرها ، وقعدت على منصتها ، وعاينا بالمرسى من المراكب الحربية ، والتجارية لجانب الدولة ولغيرها من الدول ما قضينا منه العجب كثرة وإتقانا ، وحسنا لا يحتاج برهانا ، وكل هذه المراكب جاءت لملاقاة ابر يزيدان ممن جاور الجزائر من الدول والسلام عليه وتهنئته على الوصول لذلك القطر ، إذ لم يكن رآه من قبل على ما قيل ، وغالبها وصل قبل وصولنا ، وبزغت شمسه عند بزوغ شموسنا ، وقد أخرج كل مركب منها واحد ا وعشرين عمارة بالمدافع الكبار ، بقصد السلام على البلد على عادتهم في ذلك ، وأجابهم أهل البلد من الأبراج بمثل ما سلموا به ، ثم سلمت المراكب على بعضها بعضا بخمسة عشر مدفعا لكل مركب ، فكان عندهم ذلك اليوم يوما مشهودا ، ومن المواسم الكبار معدودا .

وبمجرد وصولنا جاء قائد المرسى للسلام على رئيس المركب وعلينا ، فطلع إلينا ببشر مديد ، وخضوع ما عليه من مزيد ، ثم ذهب وجاء بعده قبطان من نائب حاكم ، لأن الحاكم " [57] "استعفى وتأخر ، فسلّم علينا كذلك وفرح بنا وأنزلنا من البحر ، فوجدنا بالمرسى الفرسان بخيولهم واقفين لانتظارنا ، ومتأهبين لاستصحابنا ، وتقدمت منهم فرقة أمامنا ، وفرقة خلفنا ، فذهبوا معنا ونحن راكبون في عربية أي : (كروسة) تجرها الخيول إلى أن وصلنا المحل المعد لنزولنا ، فألفينا فيه من الفرش والأواني ما فيه غنية

وفي عشية ذلك اليوم بعد العصر بقليل جاءنا القبطان المذكور بتلك الكروسة وذهب معنا لدار النائب المذكور بقصد السلام عليه ، فتلقانا بالترحيب والتبجيل ، والكلام الطيب الجميل ، وسألنا عن أحوالنا وعمّا قاسيناه من أهوال البحر وارتجاجه ، واضطراب مائه وتكالب أمواجه ، ثم اعتذر عما عسى أن يكون من التقصير في حقنا ، من جهة محل نزولنا ، قال لأن قدومنا كان تعيّن أولا لوهران ، فظهر لكبراء الدولة أن يكون للجزائر جمعا مع السفراء وأمروه به بغتة ، فجازيناه بما يناسب المقام ثم رجعنا لمحلنا . وفي الغد الذي هو يوم الأربعاء السادس عشر من الشهر جاء النائب المذكور إلينا في محل نزولنا فسلّم علينا وأعاد الاعتذار ، وذلك قبل الزوال

وصول الرئيس الفرنسي للجزائر واستقباله للوفد

وعند الظهر من ذلك اليوم وصل ابر يزيدان في مراكب عديدة ، ووجد المراكب التي جاءت من الأجناس بقصده على غاية الاحتفال ، والأمور ذوات البال ، وأخرج من البارود منها ومن الأبراج شيء كثير اصطكت منه الأذان وارتجت الجبال ، وزيّنت المدينة ، وما حولها بفراسخ كثيرة من المد اشر ، والقرى وسكان تلك الرمال ، فنزل بمحل يسمى قصر الشتاء " [58] " كان للملوك الأتراك بتلك البلاد ، وذهب للسلام عليه جميع السفراء واعيان البلاد من كل ناد ، وبعد العصر جاءنا القبطان بالكروسة وذهب بنا للسلام

على ابر يزدان كذلك ، فتلاقينا معه وقوفا وهو واقف أيضا قد أزال قلنسوته عن رأسه ، ومعه بعض وزرائه وكبراء دولته ، وهش وبش " [59] " لنا ، وأخبرنا أنه فرح مسرور بسفارة مولانا عبد العزيز وأنه تحقق بها محبته ، وحاز كتاب السلطان بيده وجاز أخيرا عليه ، ثم خرجنا من عنده ورجعنا لمحلنا .

حضور حفل استقبال السفراء والأعيان

وبعد المغرب من ذلك اليوم جاء القبطان واستدعانا لوليمة جعلها ابر يزدان للسفراء ، والأعيان من عنده ، وهم نحو المائة والثمانين ، فذهبنا إليها وحضر ابر يزيدان بنفسه ، وكان فيها احتفال عظيم ، وضوء كثير عميم ، لا يكاد يحصى أو يعد ، و يستقصى على نسق غريب ، وشكل عجيب ، ولما أخذ الناس مراكزهم وجلسوا وهم لابسون من الملابس صنوفا ، ومن الذهب الإبريز ألوفا ، جاءت جاء ت الأطعمة الكثيرة في أطباق جليلة ، بديعة جميلة ، وحضر من أنواع الحلواء ، والفواكه ما لم يكن بالبال ، وكل الأواني جديدة على أحسن منوال ، وحيث تمّ الطعام وانقضى ، وذهب جزء معتبر من الليل ومضى ، وقف ابر يزيدان على قدميه ، وخطب بنفسه خطبة عجمية اسمعها جميع الحاضرين ، وقد ترجمها لنا بعضهم باختصار ، بأنّه حمد الله تعالى على ما خولهم من الملك ، وأعطاهم من الحكم على قطر الجزائر بعد أن كان لغيرهم ، وذكّرهم نعم الله عليهم في امتداد الأمن بأقطاره ، واتّساع دائرة أنصاره وما صاروا فيه من الثروة العظيمة ، والتجارة الكثيرة العميمة ، وعمارة البلاد وتسيير الأسباب في كل ناد ، إلى غير من هذا المعنى ، وبعد فراغه منها أخذوا يهنونه على ذلك ويهني بعضهم بعضا

وصف قصر الصيف والحفل الراقص المقام فيه

ثم انفض المجلس ورفعت تلك الموائد ، والأواني الرائقة المعاني والمباني ، وأذن بخاصة الناس وعامتهم في الدخول للقصر ، وهو محل هذه الضيافة ، ويسمّى قصر الصيف ، وهو غير قصر الشتاء المتقدم الذّكر ، كان أيضا

لملوك الترك ، وهو قصر كبير حسن الشارة ، فسيح الدّارة عظيم الشأن ، واضح البرهان ، دل على ضخامة بانيه ، ورفعة شأنه ، فدخل الناس إليه أفواجا فرادى ، وأزواجا ، نساء ، ورجالا ، شيوخا ، وكهولا ، وأطفالا ، وأخذوا يتفرجون في تلك الأماكن العديدة ، والمباني الفاخرة الفريدة ، ويتفسحون في أ رجائها ، ويطفون في أنحائها ، ويتفكرون في قطانها الأولين وأحيائها ، الذين لا يبغون بها بدلا ، ولا يتوقّعون فيها سآمة ولا مللا ، ثم اجتمعوا بمحل الضيافة لاتّساعه ، وأخذه المأخذ الكبير في انفساحه وارتفاعه ، وصاروا يلعبون اللعب المسمّى عندهم بالبايلي بتفخيم الباء ، وهو رقص يكون للرجال مع النساء ، فكلّ رجل يرقص مع امرأة سواء كانت من ذوي رحمه كبنته وأخته ، أو أجنبية عنه ، وسواء كانت متزوجة أم لا ، سواء كان زوجها حاضر يرى أو غائبا ، ويده قابضة على يدها ، واليد الأخرى حائز لها بها من خصرها ، وحومة الرقص متّسعة جدا ، كان بها عدد كثير يرقصون في آن واحد وغالب الناس جالسون على الشلايا " 60 " يتفرجون ، وكثير من النساء مكشوفات الصدور ، والظهور والذراعين ، والشعور ، وهنّ لابسات أفخم اللباس وأحسنه وأنقاه ، ولما علمنا ذلك وعايناه ، ولم يكن تقدّم لنا العلم به ولا عرفناه ، خرجنا بعد مشقّة من الازدحام ، وتراكم الأنام ، وذهبنا لمحلنا ، وأخبرونا أنهم قطعوا الليل كله في ذلك ، وكلما ذهبت طائفة أتت طوائف بحيث لم ينقطع الوارد عليهم .

حضور الوفد للاستعراض العسكري

وفي الصباح وهو يوم الخميس السابع عشر من الشهر جاءنا القبطان بالكروسة يدعونا على لسان ابر يزيدان للحضور في عرض العسكر بمحل يسمى الميدان ، يسع آلافا كثيرة من الناس ، فذهبنا وألفينا الميدان غاصّا بخاصة الناس ، وعامتهم ، وجلسنا على الشّلايا مع الخواص في محل مرتفع ، وكان من العسكر شيء كثير ، دل على حزم كبير ، واعتناء شهير ، وكل

عسكري حامل على عاتقه جميع وطره وكل ما يحتاجه في حضره وسفره ، حتى الخزائن وركائزها ، وقصعها وأوتادها ، بحيث لو أمر بالسفر في ذلك الوقت ما تعلل ، ولا اعتذر بعذر ولا تنهل ، وكل ذلك باختصار ، لا يثقله حمله الليل والنهار.

وبعد وصولنا بقليل جاء ابر يزيدان في كروسته " [61] "تجرها أربعة من الخيول مع بعض وزرائه ، وطاف وهو بها على جميع تلك العساكر للسلام عليهم ، والاعتناء والتنويه بهم ، ثم جاء للمحل المعد له فنزل من الكروسة ووجد نحو الخمسة عشر رجلا من كبراء العسكر واقفين له في صف واحد فوقف لهم ، ثم أعطاهم النياشين واحد بعد واحد وعلقها عليهم بيده وكل من علّق عليه نيشانه يقبله في وجهه يمينا وشمالا كأنه يبارك له النيشان ، وكذلك صاحب النيشان يقبل ابر يزيدان في وجهه قبلتين في اليمين وفي الشمال ، ولما فرغ طلع لمحله وجلس على شليته غير منعزل عن الناس ، وأخذ العسكر يمر أمامه على ترتيب عجيب ، وأسلوب غريب ، ومرت المدافع وآلات الحرب والمهندسون والبحريون ، وغير ، وغير وحضر في ذلك الجمع أيضا عمال البادية من المسلمين في زيي فخيم ، ولباس رفيع محفوف بالذهب الكثير ، وخيل مسومة وسروج منعمة ، ولما تمّ العرض نهض ابر يزيدان وركب كروسته ، وجازى كبير العسكر . ويسمونه الجلنار" [62] ". على اعتنائه وحزمه وضبطه ونصحه ، ثم ذهب لمحله ، وتفرق ذلك الجمع الهام وذهبنا لمحلنا .

حضور الحفل الذ ي أقامه الأعيان على شرف الرئيس والوفود المشاركة

وبعد المغرب من ذلك اليوم دعانا أعيان البلد للحضور في وليمة جعلوها لابريزيدان ، وللأعيان بمدرسة فسيحة بالبلد " [63] " ، فذهبنا إليها والقبطان معنا وكذلك الترجمان ، وهو رجل لبيب أديب يعرف اللسان العربي معرفة متقنة ، وله خبر بلغة العرب ، وإطلاع على تواريخ المسلمين ، وملوكهم وعوائدهم ومألوفاتهم ، ونفع وحمدت سيرته ، وحضرنا معهم في

الوليمة ، وحضرها ابر يزيدان وغيره من سفراء الدول ووزرائه ، وكان فيها أزيد من الخمسمائة نفس من الأعيان " [64] " وقرب الفراغ منها خطب رجل أمير عندهم " [65]" وهو واقف عن يمين ابر يزيدان خطبتين عجميتين أثنى خيرا فيهما على ابر يزيدان وذكر ما تعلق له الغرض به من الكلام ، ثم جلس وقام ابر يزيدان وخطب خطبة طويلة أيضا عجمية ثم تفرّقوا وسافر ابر يزيدان في ذلك الوقت ليلا لوهران في بابور البر " [66] " مع وزرائه ، ومنه لتلمسان ولمواضع أخر ، إلى تونس ونواحيها ، ثم يرجع لباريز محل مملكته ومقر سلطته .

أداء صلاة الجمعة بالجامع الكبير

وفي يوم الجمعة الثامن عشر من الشهر صلينا صلاة الجمعة بالمسجد الجامع الكبير " [67] "، وحضرنا الخطبة والآذان ، ورواية حديث الإنصات ، فيؤذنون أولاّ أذانا واحدا ، ثم يرون الحديث فيقولون فيه . روى إمامنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت " [68] "، وفي طريق آخر ومن مسّ الحصا والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغا ، ومن لغا فلا جمعة له ، أنصتوا رحمكم الله ، ثم يقوم الخطيب للخطبة الأولى ثم الثانية ثم ينزل فيصلي ، ويقول في محل الدعاء للإمام اللّهم أيّد من أيّد هذا الدين ، وارفع درجته في عليّين .

زيارة ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي والجامع الجديد

وبعد الصلاة مشينا لزيارة ضريح الولي الصالح سيدي عبد الرحمان الثعالبي " [69] "رضي الله عنه ، ثم رجعنا ودخلنا للجامع الجديد للحنفية " [70] "، ورأينا فيه من البهجة والرونق ما يروق الناظرين ، وعاينا النصارى يدخلون للمساجد رجالا ، ونساء لكن بأدب ووقار ، ثم رجعنا لمحلنا .

وصف لعمارة وطرق مدينة الجزائر

وفي يوم السبت التاسع عشر من الشهر مشينا صباحا للفرجة خارج البلد ، فرأينا من المباني والأجنة ما يفوق الحصر ويستغرق العد ، وفي عشّيته ذهبنا لمحل آخر خارج البلد أيضا ، وشاهدنا من ذلك شيئا كثيرا إلى أن وصلنا بير خادم ، ثم رجعنا مع المغرب لمحلنا .

وفي يوم الأحد يليه ذهبنا للفرجة في المدينة ، فعاينا من الأبنية الرائقة ، والحوانيت البهجة الفائقة ، مالا يكاد يخطر بالبال ، وعلى كل حال فمدينة الجزائر على اتّساعها وكثرة أرضها ما فيها قيد شبر فارغ من العمارة ، ولا في خارجها قيد شبر أيضا غير مشغول بالحرث والغرس والبناء الحسن المنظر والشارة وغايته فإ نما هي جنة الدنيا ونزهة الأبصار .

وأما الطرق على كثرتها وامتداد فروعها في داخل البلد وخارجها إلى حيث انتهت ، فكلها مستوية نقية ومتسعة جلية ، مفروشة بالحجر المنحوت والمصنوع على هيئة الياجور في الانبساط والكيفية ، وكل عمالة الجزائر كيفما امتدت واتسعت على ذلك المنوال كثيرة الأشجار ممتدة الظلال

زيارة محل الرصد

وفي يوم الاثنين الواحد والعشرين من المحرم المذكور ذهبنا . قبل العصر . لمحل الرصد خارج البلد " [71] " وهو محل أنيق ، ومنظر بهي شريق ، وبناء حفيل ، ورونق جليل ، فيه من الآلات العجيبة التي يرصدون بها الشمس ، والقمر، والنجوم ليلا ، ونهارا مالا يمكن وصفه ، ولا يتأتّى نعته إلاّ بالعيان والمقابلون لذلك والمباشرون له هم أناس يقال لهم : الفلكيون والمنجمون ، وفرحوا بنا واستبشروا بمقدمنا وهشّوا وبشّوا لرؤيتنا ، وطافوا معنا على تلك الأماكن ، وأطلعونا على ما فيها ، وسألونا هل بفاس من يتعاطى هذا العلم ويعتني به ، فأجبناهم بأنه لا تخلوا مدينة فاس ممن يعلمه إلاّ أنه غير مشهور وبعد أن تفرجنا في ذلك واستوعبناه ورجعنا لمحلنا ، وما وصلناه

إلا بعد المغرب بكثير لبعد ذلك المحل عن المدينة ، مع كون الطريق الموصلة له كلها في الجبال والربي . لأن الجزائر كلها أو غالبها جبال شواهق كمدينة فاس ، أو أكثر ، ومع ذلك فجميع طرقها سهلة واسعة ، تمر فيها الكراريص الكثيرة من غير تعب ولا مشقة ، وتجري فيها جري السوابق إلى أن تصل قمّة الجبل في أسرع ما يكون ، وكل جبالها ووهادها مشغول بالحرث والغرس ، والبناء وتكاثف الظلال عن اليمين وعن الشمال ، وقد قال لي بعضهم بعد أن سألته : إنّ هذه العمارة متصلة وممتدة إلى المدن البعيدة من الجزائر كوهران ، وتلمسان ونحوهما ، ومسافة مابين وهران والجزائر ببابور البر " [72] " نحو اثنى عشر ساعة ، وهي خمسة عشر يوما بتقريب ، إلا المواضع السبخة والصلبة ذات الحجر الصلد فتبقى لرعي البهائم

زيارة المحجر الصحي

وفي صبيحة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر بعد الشروق بقليل توجهنا للمحجر " [73] " وهو المحل الذي تكون به كرنتيلة الحجاج " [74] "، بينه وبين المدينة للراكب في الكروسة ثلاث سوايع " [75] "، ولراكب البهيمة ستّ سوايع ، ولما وصلنا وطفنا بها ألفيناه محلا حفيلا ، وبناء متعددا بهيّا جميلا ، وفيها نبات وأزهار، وأشجار أنيقة وثمار، وهو على شاطئ البحر تضرب الأمواج على طرف أرضه " [76] "، ووقفنا على مقبرة للحجاج فيها نحو الأربعين من قبورهم ، فترحّمنا عليهم و قرأنا بإزائهم ما تيسّر من القرآن ، ثم دخلنا لمحل نقي ظريف فأكلنا فيه وشربنا ، وفرح بنا المقيمون بالمحجر واعتنوا بنا ، وطافوا معنا على أماكنه وقابلونا بالجميل ، وكان معنا والآخذ بيدنا فيه الطبيب المكلف به ، وهو المكلف أيضا . بمحجر طنجة والصويرة ، وهو رجل عاقل ثابت ذو أناة وتؤدة ، ثم رجعنا لمحلنا عشية النهار .

سياسة تمليك الأراضي

ورأينا في الطريق من عجائب الأبنية وغرائب الغروس ما يستوقف الطرف ويفوت الحصر ، وقد قال لنا بعضهم : إنّ السبب في عمارة كل البلاد هو أنّ كل من عمر أرضا وغرسها ، والتزم العمل فيها عشر سنين وظهرت نجدته وكفايته ، يعطيها له صاحب الأمر ، ويملكه إياها تمليكا أبديا سرمديا فيبيع فيها ويشتري وتورث عنه ، فتسارع الناس لذلك ، وبذلوا فيه وسعهم ومقدورهم وتنافسوا " [77]" ، إلى أن صارت الأرض جنة واحدة ما فيها قدر قدم فارغ .

وسائل النقل

وفي هذا البلد شيء كثير من الكراريص المتنوعة السير ، فمنها ما تجره الخيل ، ومنها ما يمشي بالكهرباء في طريق من الحديد " [78] "مثل بابور البر يحمل الخمسين من الناس وأكثر بالنسبة لما يجره من ورائه من الكراريص ، وهو أسرع مما تجره الخيل بكثير ، ومنها نوع يمشي بالكهرباء ، وزيت الكاز " [79]" في غير طريق الحديد ، وعندي أنه أسرع من الذي قبله يحمل نحو الخمسة أناس ، ويسمّى عند المشارقة السيارة ، ومنها نوع يركبه واحد فقط له جرارتان واحدة من أمام والأخرى من وراء ، يمشي بتحريك رجلي الراكب أسرع من طرفه العين ، ويسمّى الدراجة ، ومن لا معرفة بتمشيّته لا يقدر على ركوبه ، وعندي أنه لا يركبه إلا الأحداث ، وليس من المروءة أن يركبه غيرهم ، ولولا هذه الكراريص ما قدر أحد على استيعاب تلك البلاد إلا في الأيام الطويلة لكبرها واتساعها ، وغالب الناس أو كلهم يركبونها في حوائجهم وضروريات معاشهم ، فلا ترى راجلا في الطريق إلا في النادر أو في الأسواق ، بل كل من هو مستور الحال لا يليق به أن يمشي إلا فيها ، وربما يعاب عليه المشي على رجليه ، ومن وراء هذه الأمور عجائب وغرائب لا يفي بها القرطاس .

استقرار الأسعار ووفرة السلع

ومن جملة الضبط الذي عندهم في البلاد أن السعر من جهة المأكولات مستقر ، لا يزيد ولا ينقص هذه مدة تزيد على السبع سنين ، لأن القائمين بها أعطوا خطوط أيديهم بعدم العجز عنها لمدة معلومة ، فالناس مستريحون من نكد الفقدان ، وهموم طوارق الحدثان ، وحيث تتم مدتهم تجعل معهم مدة أخرى أ و يبدلون بغيرهم ، والأشياء موجودة في الأسواق بكثرة من غير ازدحام ولا لغط ، واللحم موجود في كل الأوقات على كثرة ما بالمدينة من الخلق ، والإدام ، والخضر والفواكه كذلك على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها

تدريب العسكر

ومن ضبطهم وحزمهم أن تحريب " [80] " العسكر يكون دائما في قدر معلوم من النهار ، وقد رأينا بعضه في الميدان المتقدّم الذكر ، ورأيناهم ينصبون أعواد طوالا على هيئة صواري المراكب مركوزة " [81] " في الأرض ، فيأتي الفارس جريا على فرسه وسيفه مسلول في يده فيضرب به ذلك الصاري ويمر كالبرق الخاطف ، ولهم كيفيّات متعددات في المطاردة ، والمساورة ، تدريبا على أمور الحرب والطعن ، والضرب ولا شغل للعسكر إلا ذلك لأنه كفى هم المعاش .

ومن جملة حزمهم واعتنائهم أنهم يقرءون كلهم ويكتبون رجالا ، ونساء ، وأطفالا " [82] "، وقد رأيت المرأة بالحانوت مع زوجها تكتب له وتقرأ وتقيّد المبيعات والأثمان " [83] " ، قد كفته الهم في ذلك ، وزوجها إنما يبيّن لها الأسوام " [84] "، على أنها عالمة بها ، ولكنها من أدبها معه وحسن عشرتها أن لا تستبد عليه وكلهم على ذلك المنوال .

حديقة الحامة

ومن جملة ما عيناه من الأماكن النفيسة ، والمواضع المعتبرة الرئيسية جنان لجانب الدولة يسمى الحامة " [85]" بوزن الطامة ، وهو مباح الدخول

والفرجة لكل الناس ، على شرط عدم مسّ شيء منه باليد ، وقد دخلناه فألفيناه جميل الشكل ، ظريف المنزع ، بهي المنظر ، واسع الفناء ، حسن الترتيب ، نقي الساحة ، وفيه من أنواع الأشجار ، وغرائب ، والنخيل العظيم المقدار ، والأشكال العجيبة من الأزهار مالا يحصى ، وفيه نخل لا يحلق على ساقه اقل من ثلاثة رجال أو أربعة ، لغلظهم الخارج عن حد المعتاد ، وفيه القصب ي على غاية ما يكون من الغلظ والخشونة ، وفيه أنواع كثيرة جدا من النبات لا نعرفها ، ولم نكن قبل رأيناها ، وكل ذلك يأتون به من جميع أقطار الدنيا ، كا لهند و الصين ، والمركان " [86] " واصبا نيا ، وغيرها مما يطول ذكره ، فيغرسونه في هذا الجنان بالخصوص بقصد الاختبار هل ينجح بهذا القطر أو لا ، والنوع الذي رأوا نجاحه يبالغون في تكثيره حتى يصير معروفا عند الخاص والعام ، وتدخل منه أموال عريضة تفضل عن صائره الطويل الذيل مما يباع منه للناس من الغرس كانوا من أهل الوطن أو من غيرهم ممن يريد توجيهه لقطر آخر ، ورأينا فيه النعام ولم نكن قد رأيته قبل ، وهو الطويل العنق كالجمل ، كبير الجثة ، مليح المنظر ، ورأينا الطير المسمّى الطاووس متعددا , وهو طير يأخذ بمجامع القلوب في حسنه وتزويقه ، ونصاعة ألوانه وكثرتها ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وصف حال أ سواق المدينة ومرساها

ومن جملة ضبطهم أنّ المدينة فيها آلاف من الخلق يستغرب سماعها ، ومع ذلك فلا يسمع في الأسواق صياح ولا صخب ، ولا تقع مشاجرة ، ولا مضاربة ، ولا وصب ، فكل مشغول بشغله ومقبل على شأنه.

وأما المرسى " [87] " فلا يسأل عن حسنها ، وتقويمها وكثرة مرافقها وخدمتها وآلاتها ، وغير ذلك مما يتعلق بها ، ولهم فيها استعانة كبيرة ببابور البر في الأشياء الشاقة في الموضوع والموسوق ، في كل غروب وشروق ، وكنت مشتاقا لركوبه للعلم بأحواله فلم يقده الله الآن .

نهاية الرحلة

وغاية الأمر ومنتهاه أن تتبع الجزئيات من أحوال هذه البلاد يفضي إلى مجلدات ، واستغراق مدة كبيرة من الأوقات ، والقصد إنما هو التعرض لرؤوس المسائل لئلا تذهب الوجهة بغير طائل ، وإن كان هذا القدر الذي ذكرناه ، والوصف الذي وصفناه ، معلوما عند الناس ومشهورا عند سائر الأجناس ، فهو وإن كان كذلك فغير معروف عند أناس آخرين ، ومحبوب سماعه والعلم به عند قوم صالحين ، والناس متفاوتون في العقول ، ومتباينون في النقول ، على أن ذلك لا يخلوا من فائدة عند من شأنه الإنصاف وتحاشى عن ركوب صهوات الاعتساف " 88" ، وكان كريم الطباع جميل الأوصاف ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

ولما عزمنا على القفول لبلادنا ، محل طار فنا وتلادنا ، وظهرت لنا أعلام الرحيل ، وقام عليها الشاهد والدليل ، أمسكت العنان عن هذه الأخبار ، وجعلتها برهانا عمّا وراءها مما أتى أو يأتي به الليل والنهار ، وأسأل الله العلي الستار ، العظيم الكبير الغفار ، أن يغفر لي ما تحملته في هذا المسطور وغيره من الأوزار ، بجاه النبي المختار ، سيد الأبرار ، وزين المرسلين الأخيار ، وصلى الله عليه وسلم وعلى آله الكرام الأطهار ، وصحابته المنتخبين الأنصار .

ولما أكملت هذا التقييد وتممته ، **سمّيته " تطريب الأسماع بأخبار الجزائر وما يقربها من الأصقاع "** وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وكان الفراغ منه . وأنا بالجزائر ، يوم السبت السادس والعشرين من المحرم الحرام ، عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف ، انتهى .

وقد حاز منه نسخة محل الأخ السيد بناصر غنام الربا طي بعد أن طلبها مني ، ولولا هي لزدت أمورا ظهرت لي زيادتها ن لكني اخترت أن يبقى على نسخة واحدة ، وفيها كفاية إن شاء الله تعالى لمن استحسنه من الإخوان ، وكان له

اهتمام بمطالعة أخبار البلدان ، ليعلم من لم يصل لذلك القطر ما عليه الأحوال هنالك ' سلك الله بنا أحسن المسالك ' بمنّه وكرمه آمين .

الهوامش

[1]. العباس بن إبراهيم السملالي : الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ، ج 10، راجعه عبد الوهاب بن منصور ، ط 2، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1993الملكية الرباط ، 1413هـ / 1993 ، ص 258

[2]. اسماعيل بن الأحمر : بيوتات فاس الكبرا ، دار المنصور للطباعة والنشر ، الرباط ، 1972، ص 19

[3]. الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين : التنبيه المعرب بما عليه الآن حال المغرب ، السفر الأول ، تقديم وتصحيح ، محمد المنوني ، ط1، 1415هـ / 1994/م ، ص 160

[4]. محمد غريط : كتاب فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان ، ط1 ، المطبعة الجديدة ، فاس ، 1347 هـ ، ص 71، 72

[5]. عرف بأنه له إطلاع على النوازل والأحكام ، واشتهر بقلمه السيّال ، له الكثير من التآليف منها المصدر المشار إليه أعلاه توفى في 16 جمادي الثانية سنة 1289هـ ودفن برأس القليعة داخل باب الفتوح . للمزيد انظر عبد السلام بن عبد القادر بن سودة : إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع ، ج 1، تنسيق وتحقيق محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1417 هـ / 1997 م ، 243

[6]. ورد هذا الكتاب أيضا تحت عنوان :" دوحة المجد والنسرين ، في نسب أبناء بني العشرين " انظر : الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين: المصدر السابق ، ص 160

[7]. عبد السلام بن عبد القادر بن سودة : المصدر السابق ، ص 243

[8]. الحسن بن الطيب : المصدر السابق ، ص 147

[9]. اسماعيل بن الأحمر : المصدر السابق ، ص 19

[10]. الحسن بن الطيب : المصدر السابق ، ص ، 37

[11]. محمد غريط : المصدر السابق ، ص 72

[12]. أبو حامد محمد العربي بن يوسف الفهري : مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب) ، دراسة وتحقيق ، الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني ، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد ، دار ابن حزم ، المغرب ، ص ، 69

[13]. العباس بن إبراهيم السملالي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 23

[14] . الحسن بن الطيب : المصدر السابق ، ص ، 4 ، 5 . بعد عودتي إلى كتاب مؤرخ مراكش وقاضيها العباس لم أقف على هذه المعلومة التي أوردها ، وعليه فقد نسبت المعلومة التي ذكرها إليه كما أوردها المنوني

[15] . الحسن بن الطيب : المصدر السابق ، ص ، 37

[16] . نفسه : ص 3 ، 144

[17] . نفسه ، ص 162

[18] . نفسه ، ص ، 141

[19] . نفسه ، ص ، 144

[20] . نفسه ، ص ،163

[21] . عن نثر وشعر الحسن بن الطيب : انظر مخطوط ، الخزانة العامة، رقم 1261ج

[22] . الحسن بن الطيب : المصدر السابق ، ص 163 ، 186

[23] . نفسه ،ص ، 172

[24] . نفسه ، ص ، 28

[25] . نفسه ، ص ، 172 ، 173

[26] . نفسه ، ص 38

[27] . نفسه ، ص ، 49 . 45 ، 54 . 57

[28] . انظر عن ذلك . ص 16 من الرحلة

[29] . الحسن بن الطيب : المصدر السابق ، ص 164 ، 165

[30] . عن الرحلات التي قام بها داخل السلطنة انظر :. الحسن بن الطيب : نفسه ، ص ، 162، 164

[31] . عن زيارة قبور الصالحين والأولياء انظر : محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، حققها ووضع فهارسها ، د ، الشريف محمد حزة بن علي الكتاني ، الرباط ، 2005، ص ، 6 ، ص ص 10. 13

[32] . الحسن بن الطيب : المصدر السابق ، ص ، 164

[33] . نفسه ، ص ، 162، 163

[34] . نفسه ، ص ، 144

[35] . نفس المصدر والصفحة

[36] . نفسه ، ص 144

[37] . نفسه ، ص ، 38

[38] . نفسه ، ص ، 17

[39] . نفسه ، ص ، 29

[40] . نفسه ، ص ، 197

[41] . نفسه ، ص 127

[42] . نفسه ، ص 179

[43] . انظر : ص27 من الرحلة

[44] . الحسن بن الطيب : المصدر السابق ، ص 40

[45] . نفسه ، ص ، 178

[46] . ببريزيدان يعني به الرئيس والقصد به هنا هو الرئيس ايمل لوبي المولود في 31 ديسمبر 1838م ، والده يسمى جان انطوان أوغستين ، وأمه هي ماري مارغريت نيكوليه ، يعد لوبي الابن الثاني بعد أخيه الأكبر أوغست المولود في 1837م ، وأخته الصغرى المولودة في 1842م ، تلقى تعليمه الثانوي بمسقط رأسه ، ثم انتقل إلى باريس أين استقر بالحي اللاتيني ، درس القانون لكونه يرغب أ ن يكون يوما محاميا ، تحصل على شهادة الدكتوراه قي القانون سنة 1863م ، بعدها عاد إلى مسقط رأسه ليدخل عالم السياسة أين تدرج في المسؤوليات ليصبح رئيسا لفرنسا في الفترة مابين 1899م إلى غاية 1906م للمزيد عن حياته انظر : Wycisykiewicz Barbara . archives nationales Paris, sections des archives privés .fonds Emile Loubet (1 838 _ 1929) et famille alliée de Soubeyran de Saint prix 4 73Ap1 à 28 ; Université de Lyon 3 . 2005 _ 2007. p p 1 _ 5

[47] . هو الأمين بناصر غنام (1262هـ / 1334هـ) أو ما يطلق عليه اصطلاحا أمين الصاير ، تكمن مهامه في تنفيذ ملازم السفر أين يكتب ظهيرا شريفا لكافة العمال والقبائل يحثهم فيه تموين الرحلة في الذهاب والإياب شغل ناظر أحباس الرباط وهو في عنفوان الشباب والنضج كان من ضمن الوفد المشارك في الرحلات السفارية المتوجهة لكل من فرنسا وبلجيكا وانجلترا وايطاليا في عهد السلطان المولى الحسن الأول أين اشرف على الأمور المالية للسفارة المغربية التي تحمل إليها العديد من الهدايا والتحف والصناديق المملوءة بالويز الذهبي قصد توزيعها على شكل تبرعات وهبات بالمدن الأوربية ، كما شارك ضمن الوفد الذي قام بالرحلة إلى الجزائر سنة 1903م والتي نحن بصدد دراستها . للمزيد انظر : ادريس الجعيدي السلوي : إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار ، رحلة إلى فرنسا ، بلجيكا ، انكلترا ، ايطاليا 1876م ، حققها وقدم لها عز المغرب مغنينو ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د ، ت ، ص 6،5 ، 203 . ابن زيدان عبد الرحمان بن محمد السجلماسي : إتحاف أعلام الناس ، ج 2، تحقيق

، د ، علي عمر ، الناشر مكتبة الثقافة الدينية ، ط1، 1429 هـ ، 2008 م ، ص325 ، 613 . وانظر أيضا : عز المغرب مغنينو: سفارة محمد الزبيدي والسرقة التي تعرضت لها بإيطاليا من خلال رحلة إدريس الجعيدي في عهد السلطان مولى الحسن الأول مجلة ، دعوة الحق ، عدد 323، جمادي الثاني 1417هـ ، نونبر 1996

[48]. يقصد به هنا صاحب الرحلة الحسن بن الطيب اليماني المعروف ببوعشرين

[49]. ولي الولاية بعد وفاة والده سنة 1894م وهو أصغر إخوته ، ونظرا لحداثته تم تعيين احمد بن موسى (أبا حماد) كحاجب عليه وهو رجل كانت له خبرة في المؤامرات ومناورات القصور فتمكن هذا الأخير من القضاء على المعارضة الداخلية وتمكن احتلال الصدارة في شؤون الدولة واستمر الأمر على ما عليه لمدة ست سنوات إلى أن رحل أحمد بن موسى سنة 1900م لتبدأ مسيرة السلطان لمدة 8 لسنوات أخرى حيث تغير الأمر كليا ولم يتمكن المولى عبد العزيز من السيطرة على الوضع ر غم محا ولاته الإصلاحية غير تلك الإصلاحات لم تأت بجديد بل كانت بعضها سببا في إثارة العامة عليه كضريبة الترتيب ، وسرعان ما ثار علية الناس في المدن والبادية انتهت بانقلاب الأخ الأكبر عليه سنة 1908م فتنحى عن مركزه كسلطان للمغرب وانتقل إلى منفاه في طنجة التي قضى بها بقية حياته إلى أن وافته المنية سنة 1943م . للمزيد أنظر : عبد الكريم غلاب : قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي ، عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر ، ج3، دار الغرب الإسلامي ، ط 1، 1426هـ / 2005م ، ص ص ، 130. 162

[50]. هو أبو محمد عبد الكريم نشأ يتيما بعد وفاة والده وتركه في في كفالة أمه ، فنشأ على ما يقتضيه يتمه انكب على تحصيل العلم فحصل ما حصل اشتهر بأدبه ووقاره لدرجة انه وصف بثبير ورضوي (جبلين أولهما بمكة والثاني بالمدينة) تولى الكتابة للباشا الحاج عبد الله بن احمد ثم لابن أخيه أحمد وقت حجابته وصفه صاحب فواصل الجمان بأنه "كاتب رفيع الجنان من بيت رياسة مديد الإطناب ، مليح الخط والشارة ، مصيب الفراسة والإشارة " ترقى في المسؤوليات فصار كاتبا في الخارجية ثم وزيرا للوزارة المسماة وزارة أشغال الأجانب أين أظهر كفاءته في حل الكثير من المتاعب ، وبعد سنة من توليه الوزارة وجه لبعض الدول كسفيرا من طرف السلطان عبد العزيز وبعد عودته أراد تطبيق وترتيب الجباية على نهج سوي ونمط أوروبي واستحلف الموظفون على المصحف الشريف على أن لا يقبضوا رشوة وأصدر في ذلك الخصوص كتابا مؤرخ في 10 جمادي الثانية سنة 1319هـ .للمزيد انظر : محمد غريط : المصدر السابق ، ص 92. 98

[51] . ورف الظل أي اتسع ويقال أورف الظل وورف وورّف إذا طال وامتد . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مج 9، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه ، عامر احمد حيدر ، وراجعه ، عبد المنعم جليل إبراهيم ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1، 1424هـ / 2003م ص 424

[52] . يشير صاحب الرحلة هنا أن الهدف من هذه الرحلة السفارية انه يدخل ضمن أداء حقوق المجاورة التي حث الشرع على المحافظة عليها ، لكن يبدوا لنا من خلال تتبعنا لأحداث التي كان المغرب يمر بها آنذاك ، وما تتعرض لها من ضغوط الدول الأجنبية ومن بينها فرنسا وعليه كانت تلك السفارية لها هدف أبعد مما أظهره الكاتب ويدخل ضمن سياق كسب ود فرنسا لإبعاد تدخل فرنسا في الشؤون الداخلية للمغرب والتخفيف من حدة ضغوطها علي المغرب

[53] . يقصد به مسافة ما بين الشيئين . انظر: ابن منظور: لسان العرب، مج 13، ص 72

[54] . يسميه الإدريسي وادي أولكس ويذكره الحميري باسم لكس وهو نهر من انهار المغرب المشهورة يستمد مياهه من انهار وعيون كثيرة عليه عمارات وقرى وديار نذكر منها قصر ابن عبد الكريم . انظر : الإدريسي : صفة المغرب وارض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشر دوزي ودي خويه ، المطبعة الشرقية ، ليدن ، 1866، أمستردام ، 1969، ص 78، 79 وانظر أيضا : محمد بن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، حققه إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، ط1،1975، ط2، 1984، ص 476

[55] . نهر من أعظم أنهار المغرب منبعه من حبل في بلاد بني واريتن يبعد عن مدينة فاس مسيرة ثلاثة أيام . الحميري : نفس المصدر ، ص 606

[56] . يسمى قصر صنهاجة وقصر كتامة وقصر عبد الكريم أسسه عبد الكريم بن عبد الرحمان بن العجوز الكتامي في عصر الموحدين ، وهي مدينة تقع بين العرائش وفاس وتقع على بعد 127كلم جنوب طنجة .أنظر : الصديق بن العربي : كتاب المغرب ، دار الغرب الإسلامي ، ط3 ، 1404هـ / 1984م ، ص 219، 220

[57] . يقصد بالحاكم هنا ا لسيد Maurice Varier (1851 م. 1919 م) الأمين العام للحكومة العامة الذي تولى المسؤولية مؤقتا بعد استقالة السيد Revoil في 12أفريل 1903 م وبقي كحاكم مؤقت على الجزائر لغاية 5 مايو 1903م وهو الذي رافق الرئيس الفرنسي وتولى مراسيم استقباله . انظر : شارل روبير أجرون : الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871 م / 1919م ، ج 2، نقله إلى العربية م . حاج مسعود ، ع . بلعريبي ، دار الرائد للكتاب ، الجزائر ، ص ، 614 ، 615. وللمزيد عن Maurice Vernier انظر أيضا :

La revue nord Africaine illusrée , le voyage présidentiel dans l'Afrique du nord ; 5 juin 1903 ,tome ,2 n° 10 , p 302 , 303 وللمزيد أكثر انظر : Hebert Lyautey: monsieur Maurice Vernier – Haut commis saire – du gouvernement . article paru dans le journal " Le s tablettes M marocaines du 6 décembre 1919.

[58] . يقصد به قصر حسن باشا الذي يعد من أجمل قصور القصبة السفلى يقع بجوار جامع كتشاوة ، يقابل هذا القصر دار عزيزة ، يعتبر هذا القصر بمثابة المركز الرئيسي لمدينة الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي ، استولى عليه الجيش الفرنسي واتخذه مقرا للمحافظ العام للجزائر ، أدخلت عليه تعديلات من طرف الفرنسيين وهذا ما أبعده عن شكله الحقيقي ماعدا الصالونات التي تحمل بصمة العثمانيين انظر : ساسية مسادي : خبراء يتخوفون من سوء استغلال قصور أثرية ومعالم تاريخية ، جريدة النهار الجديد ، الصادرة بتاريخ 14 مارس 2008

[59] . هش وبش تعني الفرح والمرء والانبساط إليه والأنس به وعليه يقال رجل هش وبش وبشاش أي طلق الوجه طيب ، انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مج 6 ، ص 320

[60] . جمع شيليات :الكراسي والمقاعد من كلمة (sil la) ا لاسبانية الأصل . انظر : محمد الغساني الأندلسي : الرحلة االتتويجية إلى عاصمة البلاد الانجليزية 1902 م ، تحقيق وتقديم عبد الرحمان مودن ، ط1 ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، 2003 ، ص 69

[61] . أي في عربته انظر عن ذلك ص ؟؟؟ ؟ من الرحلة .

[62] . أي العميد

[63] . يقصد بالمدرسة هنا الثانوية الجديدة بباب الوادي والمسماة فيما باسم ثانوية بيجو ، وتعرف في وقتنا الحالي باسم ثانوية الأمير عبد القادر انظر: François Vernet : La visite du , président de la République Emile Loubet à Alger , du 15 au 24 avril 1903 , paru dans la Revue L' A lgérianiste n° 106 juin ,2004,p,31

[64] . حد د François Vernet عدد المد عوين ب 477 شخص ، وهو ليس ببعيد عن الرقم الذي أكده المؤلف في رحلته . انظر : François Vernet : ibid. , p , 31

[65]. يعني بالأمير الذي ألقى الخطاب هنا هو السيد سي محمد بن رحال وجاء خطابه في صورة عرض دقيق لرأي الأعيان المسلمين : أي رفض الإدماج والمطالبة بالتمثيل السياسي ، كما عبر ابن رحال عن أمله أن تقدم فرنسا ، المترددة في سياستها تجاه المسلمين ، على اتخاذ موقف صريح ، دون أن تنسى أن ذلك من صميم مصلحتها وضروري لنجاح طموحاتها . انظر : شارل روبير أجرون : المرجع السابق ج 2 ، ص ، 615

[66]. يقصد "ببابور البر" هنا القطار الذي اتخذه الرئيس مركبا له ولمن رافقه في تلك الرحلة

[67]. يرجع بناء هذا المسجد إلى الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين ويرجح أن الشروع في بنائه كان سنة 475هـ / 1072م ، أما الفراغ منه فكان سنة 490 هـ / 1097م وهو التاريخ المسجل على منبره ، أعيد ترميم هذا المسجد الجامع مرارا عديدة على طول تاريخه ، وإن كانت بعض زخارفه تعود إلى عصور متأخرة ، فإن هيكله العام وأجزائه الرئيسية ترجع إلى العصر المرابطي ، ويعد من أجمل عمائر العصر المرابطي القليلة الباقية بين أيدينا إلى اليوم . للمزيد انظر : حسين مؤنس : المساجد ، منشورة ضمن سلسلة عالم المعرفة ، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت عدد 37 يناير ، 1981 ، ص ، 200، 201

[68]. انظر عن الحديث : مالك بن انس : الموطأ ، ج 1، صححه ورقمه ، وخرج أحاديثه وعلق عليه ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، 1406هـ / 1985م ، ص 103

[69]. هو العلامة المفسر أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الجعفري ، ولد سنة 786هـ / 1385م بوادي يسر موطن آبائه وأجداده من الثعالبة تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه ومنه انتقل لبجاية أين لازم علمائها ثم إلى تونس ومنها إلى مصر ، ثم إلى تركيا ، ومن هذه الأخيرة انتقل إلى الحجاز أين اختلف على مجالس العلم هناك ثم عاد إلى وطنه مرورا بمصر وتونس ليستقر به المقام بمدينة الجزائر لنشر العلم إلى أن وافته المنية وضريحه مزارا إلى اليوم .انظر : عبد الرحمان الثعالبي : غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد ويليها رحلة عبد الرحمان الثعالبي ، تحقيق ، محمد شايب ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، ط 1، 1426هـ / 2005م ، ص ص 9. 12 ، 107. 110 . وانظر أيضا: عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر والترجمة ، بيروت ، لبنان ، ط2، 1400هـ / 1980، ص ، 90

[70] . يعرف هذا الجامع بجامع الحواتين أو الجامع الجديد ، يقع في أ سفل القصبة وتحديدا بساحة الشهداء ، سمي باسم جامع الحواتين (الصيادين) لكونه قد أنشئ في منطقة تنسب إليهم ، مسجد جميل يطل على البحر بواجهة هي غاية في الجمال ، يعد أجمل نموذج للمساجد الجزائرية العثمانية الطراز يفهم من وثيقة مؤرخة سنة 1070هـ / 1660م أن الذي أنشأ هذا الجامع هو رجل يدعى حبيب أنشأه بأموال تبرع بها الحواتون والجنود وأهل الخير ،المسجد يتبع في خطوطه العامة طريقة مسجد أيا صوفيا ، أي أن مركزه كله في القبة التي تقوم وسط بيت الصلاة ، وهي تقوم على أربعة دعائم ضخمة ، ارتفاع القبة حوالي 24م ، تحيط به قباب أصغر تقوم على إيوان بيت الصلاة ، أما مئذنته فمغربية الطراز وهو بذلك يجمع بين الطرازين المغربي والتركي . انظر : حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ، 270، 208، وللمزيد أيضا انظر : نصيرة سيد علي : الجامع الجديد ، تحفة معمارية نادرة من الطراز العثماني ، جريدة الحوار ، تاريخ ، 19/ 9/ 2008

[71] . يرجع تأسيس هذا المرصد إلى سنة 1856م بثانوية الجزائر ، بعد ذلك بسنتين وتحديدا في شهر 4 جانفي من سنة 1858م تم إصدار قرار إنشاء محطة فلكية في الجزائر العاصمة تحت إشراف وزارة المستعمرات ، بعد ذلك بسنوات تم تحويل المرصد إلى منطقة بوزريعة ولا زال بها إلى يومنا . للمزيد أكثر انظر : François Le Guet Tilly , Hamid Sad saoud : La création de L'observatoire d'Alger , musée des arts et métiers , La revue n° 38 juillet ,2003

[72] . يقصد به القطار

[73] . صاحب الرحلة يذكر المحجر لكنه لم يحدد اسمه في النص والقصد بالمحجر هنا هو ما يعرف في أيامنا هذه بمستشفي باب الوادي وهذا حسب الوصف الذي قدمه لنا بكونه يقع على شاطئ البحر ، وبكونه بناء جميلا به نباتات وأزهار وأشجار وهو ما ينطبق على هذا المستشفى في تلك الفترة

[74] . كلمة مشتقة من الأصل الإيطالي (quaranta giorni) وتعني أربعين يوما وهي مدة الحجر الصحي على الإنسان أو الحيوان أو النبات وهو إجراء وقائي الهدف منه الحد من انتشار الأوبئة والأمراض المعدية الخطيرة ، وذلك بجمع المصابين في مكان خاص ومنعهم من الاختلاط بغير المصابين تجنبا لانتشار المرض ، ومعظم دول العالم تطبق هذا الإجراء عند اللزوم

[75] . مفردها ساعة و جمعها ساعات في الأصل غير أن المؤلف جمعها ب" سوايع " وهذا الاستعمال لا زال متداول في بلدان المغرب العربي

[76] . للمزيد عما يعج به هذا المحجر الصحي من نباتات وأزهار وأشجار. انظر :
Duvillers – Chasseloup ; Dey d' Alger . visite à l'hôpital du dey .Paris ;1856; p .3

[77] . لقد سنت السلطات الاستعمارية قوانين عدة مكّنت الغزاة من تجريد الجزائريين من أملاكهم وتوزيعها على المستوطنين بالمجان، وهذا تشجيعا منها للهجرة نحو الجزائر فأصبحوا ملاك من غير أن يكلفهم ذلك فلسا واحدا، وإن لزم الحال ذلك دفع أقساط سنوية زهيدة. للمزيد عن تلك القوانين انظر : شارل روبير أجرون : الجزائريون المسلمون وفرنسا ، ج 1، نقله للعربية م . حاج مسعود ، أ . بكلي ، دار الرائد للكتاب ، الجزائر ، ص ص 131. 193

[78] . يقصد به ما يعرف في أيامنا بالمصطلح الانجليزي (Tram way) وهي وسيلة نقل حضرية أو شبه حضرية

[79] . يعني به السيارة وهو ما عمل المؤلف على تعريفها لاحقا وسماها بتسميتها

[80] . أي تدريبهم

[81] . نقول مركّزة حتى يستقيم المعنى

[82] . إن صاحب الرحلة هنا لم يوضح تحديدا دقيقا قصده من الشريحة التي تقرأ وتكتب ، والراجح أن قصد ه بذلك الفرنسيين وليس الجزائريين لأن فرنسا عملت على تجهيل الشعب الجزائري ، وحرمانه من أدنى حقوقه ، وهذا ما نعيبه عن المؤلف الذي كان من المفروض عليه إبراز معاناة الجزائريين في هذا الجانب .

[83] . مما لا جدال فيه أن المؤلف يقصد بذلك النساء الفرنسيات لكون المجتمع الجزائري جد محافظ في هذه المرحلة و لم تبلغ المرأة الجزائرية في تلك الفترة بعد أن تشارك زوجها في العمل سيما في محلات البيع والشراء التي يقصدها العام والخاص .

[84] . من فعل سوم : السّوم عرض السلعة على البيع ويقال : استام مني بسلعتي استياما إذا كان هو العارض عليك الثمن . انظر : ابن منظور لسان العرب ، مج ، 12، ص 360

[85] . يعود تأسيس حديقة الحامة إلى سنة 1832 م تتربع على مساحة 30 هكتار وأربعين مربعا كانت الحديقة أرضا للتجارب العلمية التي يجريها الاستعمار الفرنسي على النباتات التي يحضرها المستعمر من مختلف العالم . للمزيد انظر :
Riviere , Au gust : le Jardin du Hamma et la société générale Algérienne , Imprimerie de E. Donnoud. paris, pp, 1 - 34

[86] . أمريكا

[87] . عن المرسى للمزيد أكثر انظر
A.Lieussou; études sur les Ports de l'Algérie , publiée par les

départements de la guerre et de la marine , 2ème édition, Imprimerie administrative de P aul Dupont , paris, 1857 pp, 8 5 - 104 .

وانظر أيضا :

Donop , Général : lettres sur l'Algérie , 1907 – 19 08 , éditeur Plon Nourrit et Cie , Paris , 1908 , pp 1 - 7

[88] . يقال التعسف والاعتساف ، ومعناه السير بغير هداية والأخذ على غير الطريق . انظر: ابن منظور، المصدر السابق، مج 9، ص 293

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

أولا: المصادر

1 . ابن الأحمر : (إسماعيل) بيوتات فاس الكبرى ، دار المنصور للطباعة والنشر ، 1993.

2 . ابن انس : (مالك) الموطأ ج 1، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه م محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، 1406هـ / 1985م .

3 . ابن زيدان : (عبد الرحمان بن محمد السجلماسي) إتحاف أعلام الناس، ج 2، تحقيق ، د . علي عمر ، ط 1 الناشر مكتبة الثقافة الدينية ، 1429هـ / 2008م .

4 . ابن سودة : (عبد السلام بن عبد القادر) إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع ، ج 1، تنسيق وتحقيق محمد حجي ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، 1417هـ/ 1997م .

5 . ابن منظور : (جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم) لسان العرب مج 6، 9،12، 13، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه ، عامر أحمد حيدر ، وراجعه ، عبد المنعم جليل إبراهيم ، منشورات ، محمد علي بيضون ، ط 1، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، 1424هـ/ 2003م .

6 . ابن يوسف الفهري : (أبو حامد محمد العربي) مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة السلفية بالمغرب) دراسة وتحقيق ، الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني ، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد ، دار ابن حزم ، المغرب .

7 . الإدريسي : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحسيني) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشر دوزي ، و دي خويه ، المطبعة الشرقية، ليدن ، 1866م ، أمستردام ،1969م .

8 . الثعالبي : (عبد الرحمان) غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد ، ويليها ، رحلة عبد الرحمان الثعالبي ، تحقيق محمد الشايب ، ط 1، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان، 1426هـ / 2005م .

9 . الحميري : (محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الأقطار ، حققه إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، ط 1، 1975، ط 1984م .

10 . السلوي : (إدريس الجعيدي) إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار ، رحلة إلى فرنسا ، بلجيكا ، انجلترا ، ايطاليا 1876م ، حققها وقدم لها ، عز الدين مغنينو ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

11 . السملالي : (العباس بن إبراهيم) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ، ج 10، راجعه عبد الوهاب بن منصور ، ط2، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1993.

12 . الغساني الأندلسي : (محمد) الرحلة التتويجية إلى عاصمة البلاد الانجليزية ، 1902م ، تحقيق وتقديم عبد الرحمان مودن ، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع ن المغرب ، 2003.

13 . الكتاني : (محمد بن جعفر بن إدريس) سلوة الأنفاس وحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس حققها ووضع فهارسها ، د . الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني ، الرباط ، 2005م .

14 . بوعشرين : (الحسن بن الطيب بن اليماني) التنبيه المعرب بما عليه الآن حال المغرب ، السفر الأول ، تقديم وتصحيح ، محمد المنوني ، ط 1، 1415 هـ / 1994م .

15 . غريط : (محمد) كتاب فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان ، ط1 ، المطبعة الجديدة ، فاس ، 1347هـ

ثانيا : المراجع العربية الحديثة

16 . غلاب (عبد الكريم) : قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي ، عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر ، ج 3 ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1، بيروت ، لبنان ، 1426 هـ / 2005 م

17. بن العربي(الصديق) : كتاب المغرب ، دار الغرب الإسلامي ، ط 3 ، 1404 هـ / 1984 م .

18. روبير أجرون (شارل) : الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871 م / 1919م ، ج 2، نقله إلى العربية م . حاج مسعود ، أ . بكلي ، دار الرائد للكتاب ، الجزائر

19. مؤنس (حسين) : المساجد ، منشورة ضمن سلسلة عالم المعرفة ، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت عدد 37 يناير ، 1981

20 . نويهض (عادل) : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر والترجمة ، بيروت ، لبنان ، ط2، 1400هـ / 1980

ثالثا : المقالات

21 . مغنينو: (عز المغرب) : سفارة محمد الزبيدي والسرقة التي تعرضت لها بإيطاليا من خلال رحلة إدريس الجعيدي في عهد السلطان مولى الحسن الأول
مجلة ، دعوة الحق ، عدد 323 ، جمادي الثاني 1417 هـ ، نونبر 1996 م

22 . مسادي (ساسية) : خبراء يتخوفون من سوء استغلال قصور أثرية ومعالم تاريخية ، جريدة النهار الجديد ، الصادرة بتاريخ 14 مارس 2008

23 . نصيرة سيد علي : الجامع الجديد ، تحفة معمارية نادرة من الطراز العثماني ، جريدة الحوار ، تاريخ ، 19/ 9/ 2008

رابعا :المصادر باللغة الأجنبية

24- Barbara Wycisykiewicz : archives nationales Paris, sections des archives privés .fonds Emile 25-Loubet (1 838 _ 1929) et famille alliée de Soubeyran de Saint prix 4 73Ap1 à 28 ; Université de Lyon 3 . 2005 _ 2007.

27- Duvillers – Chasseloup : Dey d' Alger . visite à l'hôpital du dey .Paris ;1856

28- Rivier , Au gust : le Jardin du Hamma et la société générale Algérienne , Imprimerie de E. Donnoud. paris,

29- A.Lieussou : études sur les Ports de l'Algérie , publiée par les départements de la guerre et de la marine , 2ème édition, Imprimerie administrative de P aul Dupont , paris, 1857

30- Donop , Général : lettres sur l'Algérie , 1907 – 19 08 , éditeur Plon Nourrit et Cie , Paris , 1908

خامسا :المقالات باللغة الاجنبية

31-Maurice Vernier : La revue nord Africaine illusrée , le voyage présidentiel dans l'Afrique du nord ; 5 juin 1903 ,tome ,2 n° 10

32 -Hebert Lyautey : monsieur Maurice Vernier – Haut commis saire – du gouvernement . article paru dans le journal " Le s tablettes marocaines du 6 décembre 1919.

33 - François Vernet : La visite du , président de la République Emile Loubet à Alger , du 15 au 24 avril 1903 , paru dans la Revue L' A lgérianiste n° 106 juin ,2004

34- François Le Guet Tilly , Hamid Sad saoud : La création de L'observatoire d'Alger , musée des arts et métiers , La revue n° 38 juillet ,2003

الملاحق–

الصورة الأولى من مخطوط "التنبيه المغرب لما آل إليه حال المغرب" المتضمن لرحلة الحسن بن الطيب اليماني

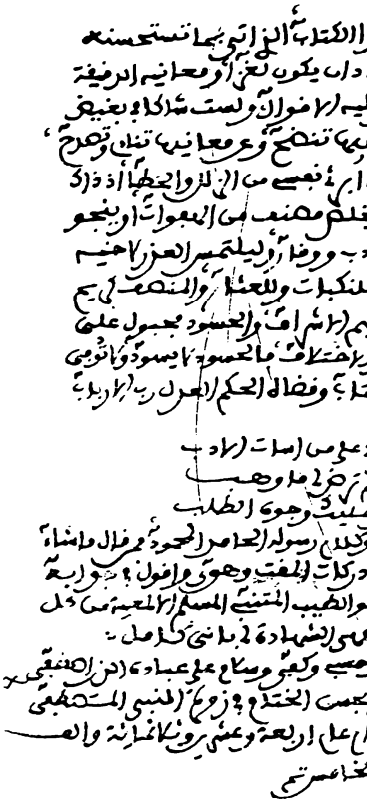

الصفحة الأخيرة من المخطوط